أ.د. عبد الكريم بكار

بية الرشيدة (٢)

القواعد العشر

«أهم القواعد في تربية الأبناء»

● نساعد القارئ الكريم على امتلاك الخطوط العريضة جدا في فهم أدبيات تربية الأبناء، وفهم الأساليب الأساسية فيها.

● أن ما يطرح في شأن تربية الأبناء هو موضع اتفاق في (٨٠٪) منه بين كل الأمم وكل الحضارات.

ث هنا عن المفاتيح المركزية
ات في التعامل مع الأبناء
وتهذيبهم.

القواعد العشر

« أهم القواعد في تربية الأبناء »

أ. د. عبدالكريم بكار

القواعد العشر

«أهم القواعد في تربية الأبناء»

أ.د. عبدالكريم بكار

الطبعة الرابعة
1432 هـ - 2011

جميع الحقوق محفوظة

ح/ دار وجوه للنشر والتوزيع ١٤٣٠هـ.
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
بكار، عبد الكريم
القواعد العشرة. عبد الكريم بكار
الرياض، ١٤٣٠هـ. ٩٨ ص؛ سم
ردمك: ٥-٣٤٦٧-٠٠-٦٠٣-٩٧٨
١- التربية الإسلامية ٢- الآباء والأبناء ٣- الأطفال أ. العنوان.
ديوي ١, ٣٧٧ ١٤٣٠/٦٣٤٥
رقم الإيداع: ١٤٣٠/٦٣٤٥
ردمك: ٥-٣٤٧٦-٠٠-٦٠٣-٩٧٨

التنفيذ الفني والنشر والتوزيع
دار وجوه للنشر والتوزيع
Wojooh Publishing & Distribution House
www.wojoooh.com
المملكة العربية السعودية - الرياض
ت: 4918198 فاكس: تحويلة 108
للتواصل والنشر:
wojoooh@hotmail.com

مؤسسة الإسلام اليوم
إدارة الإنتاج والنشر
المملكة العربية السعودية الرياض
ص.ب. 28577 الرمز : 11447
هاتف : 012081920
فاكس : 012081902
info@islamtoday.net
www.islamtoday.net

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فإن من الملاحظ اليوم وجود الكثير من الكتب التربوية الجيدة، ووجود كثير من الكتب التربوية الرديئة -أيضاً-، وهذا جعل كثيراً من الناس يحارون في اختيار الكتب التي تزودهم بالثقافة التي تساعدهم على تربية أبنائهم تربية راشدة وناجحة، ومن وجه آخر؛ فإن ما يقال: إنه مهم جداً في التربية صار كثيراً للغاية، ونحن نعرف أن الأمور المهمة حين تصل إلى مئة أو مئتين، فإن الإنسان يشعر بالعجز عن استيعابها، مما يولّد لديه الإعراض عنها جملة وتفصيلاً، ومن هنا؛ فإنه قد انقدح في ذهني أن أتحدث عن المفاتيح المركزية أو الأمهات في التعامل مع الأبناء وتهذيبهم، لعلني أساعد القارئ الكريم على امتلاك الخطوط العريضة جداً في فهم أدبيات تربية الأبناء، وفهم الأساليب الأساسية فيها.

ولعل سائلاً يسأل: لماذا كانت تلك القواعد عشراً، ولم تكن خمساً أو عشرين؟

الجواب: هو أن الرقم (عشرة) رقم مطمئن ومتوسط الحجم، وفي إمكاني وإمكان غيري الزيادة عليه والنقصان منه، بمعنى أن اختيار هذا العدد لا يستند إلى أي ضرورة علمية أو بحثية.

وما أود التنبيه إليه هو أن ما سأتحدث عنه هنا يشكّل البنية الهيكلية لتربية الأبناء، ولن يغني في حال من الأحوال عن أن نقرأ الكثير من التفاصيل، ونستفيد الكثير من الخبرات من خلال الإطلاع على الأفكار والأساليب التربوية الموجودة في كثير من الكتب والمؤلفات العربية والمترجمة.

الملاحظة الأخيرة في هذه المقدمة هي: أن ما يطرح في شأن تربية الأبناء هو موضع اتفاق في (٨٠ ٪) منه بين كل الأمم وكل الحضارات، ومن هنا؛ فإننا نستطيع الاستفادة من تجارب المسلمين وغيرهم على هذا الصعيد.

وإني لأسأل الله -تعالى- بأسمائه الحسنى، وصفاته العليا أن ينفع إخواني القراء بهذا الكتاب، وأن يجعله في موازين حسناتي، يوم لا ينفع مال ولا بنون.

والحمد لله أولاً وآخراً.

د عبد الكريم بكّار

في ١١/ شعبان/ ١٤٢٩

■ القاعدة الأولى:

(ما قبل الإنجاب)

حين يشتري الواحد منا آلة من الآلات الحديثة المعقَّدة التي لا عهد له بمثلها؛ فإنه يحاول تشغيلها واستعمالها من خلال الاطلاع على دليل الصانع (الكتالوج) المرفق بها، أو من خلال سؤال أشخاص سبق لهم تشغيلها، وكثيراً ما يُحذِّرك الصانع من استخدام تلك الآلة قبل امتلاك المعرفة بذلك، وكثيراً ما وقع الناس في أخطاء أدت إلى إفساد الآلات التي دفعوا من أجل اقتنائها أغلى الأثمان.

الطفل أعقد من أي آلة، وتحتاج تربيته التربية الرشيدة إلى معرفة وخبرة وحذق، لكن الناس لا يحبون الاعتراف بذلك، ومن هنا؛ فإن الواحد منا يملك الجرأة على أن ينجب سبعة من الولد، دون أن يخطر في باله ما إذا كان في حاجة إلى قراءة كتيب، أو سماع محاضرة، أو استشارة متخصص... ونحن نقطف الثمرات المُرَّة لتلك الجرأة، ونتائج تلك الجرأة تتمثل في انحراف أعداد كبيرة من المراهقين والمراهقات، وفشل أعداد أخرى مماثلة في دراستها وفي حياتها العملية، ولكن مما يبشر بالخير: أننا نلمس اليوم المزيد من الوعي المتنامي بأهمية التربية الجيدة والتعليم المتميز.

ولعلي أبدي في هذه المسألة الملاحظات الآتية:

١- تعني الثقافة التربوية: مجموعة المعلومات والخبرات التي نحتاج إليها في تكوين البيئة التربوية، وفي طرق تهذيب الأبناء وتنشئتهم النشأة الصالحة، وفي التعامل مع مشكلاتهم وأخطائهم.

وتعني الثقافة التربوية كذلك: فهم جوهر التربية، وأنها قائمة على التفاعل وبناء الروح الجماعية، وما يتطلبه ذلك من مبادئ وقيم وتضحيات وأفكار ومفاهيم، وهذه المكونات لن تكتمل أبداً، حيث سنظل نشعر بأننا نواجه مواقف تربوية، لا نعرف كيف نتصرف فيها على النحو المناسب، وما ذلك إلا لأنَّ التربية عملية معقدة جداً، وتتطلب قدراً جيداً من المعرفة والحكمة، وقدراً جيداً من الاتزان الانفعالي لدى المربي، إلى جانب قدر من الخبرة والممارسة العملية، وإن كل ذلك لا يعني كثيراً إذا لم يصحبه شيء من توفيق الله -تعالى- وهدايته وتسديده، وهذا ما لا يصح أن نغفل عن طلبه والدعاء به.

٢- التربية عملية ممتعة جداً وشاقة جداً، وإن جزءاً من مشقتها ينبع من أننا نشعر بالمعاناة، ونشعر أننا نضحِّي ونبذل، ولكن لا نلمس آثار ذلك في شخصيات الأبناء وسلوكاتهم، وهنا أود أن أذكّر بما ذكره أحد الباحثين عن شجرة (البامبو) الصينية، حيث إنها تظل بعد وضع البذور نحواً من أربع سنوات تضرب بجذورها الليفية في الأرض، ولا يُرى منها سوى برعم صغير ينبت من البصلة، وفي السنة الخامسة يصل ارتفاع الشجرة إلى ثمانين قدماً !

نعم هذا هو شأن التربية، علينا أن نستمر في العمل ولو لم نر النتائج، ولم نلمس التغيرات، فهي موجودة، وكثيراً ما تظهر فجأة، ومن ثم، فلا داعي إلى اليأس والقنوط والملل والسأم.

٣- مجتمعاتنا تشهد حركة انتقال سريعة من البيئات البسيطة والضيّقة إلى البيئات المعقّدة والواسعة، ويصحب هذه الحركة الكثير من التغيرات التي تنعكس على تربية الأبناء.

في البيئات الضيقة يكون التكافل بين الناس كبيراً؛ لأن تواصلهم يكون شديداً، ومن ثم؛ فإن إحساسهم بأوجاع بعضهم بعضاً يكون قوياً، وهذا يجعل الواحد منهم يشعر بأنه يتحمل نوعاً من المسؤولية الأدبية عن سلوك أبناء أقربائه وجيرانه وأصحابه، كان المجتمع كله يربي ويساعد ويتكافل، لكن الأمر يتطور على نحو سلبي، حيث اتسعت مساحة الخصوصية الشخصية، وصار كثير من الآباء لا يقبل أي تدخل في شؤون أبنائه، كما نشهد اليوم نوعاً من الانكفاء على الذات، ونوعاً من الإخلاد إلى الملذات الفردية عوضاً عن الأفراح الجماعية، إننا نتجه فعلاً نحو المزيد من العزلة ! هذا يعني: أن على الآباء أن لا ينتظروا العون الاجتماعي المعهود على تربية أبنائهم، وعليهم أن يتحملوا عبء التربية بمفردهم، وهذا يعني من وجه آخر: أن إصلاح الخلل الذي في حياتنا لن يتجه من الخارج إلى الداخل، وإنما من الداخل إلى الخارج.

الأسرة المؤمنة الخيّرة النبيلة هي التي ستسعف المجتمع بالنماذج الممتازة، دون أن تنتظر منه الكثير من المساعدة، وهذا مؤسف!

٤- انهيار الحضارة نابع من انهيار المجتمع، وانهيار المجتمع نابع من تفكك الأسرة؛ لأن الأسرة هي الوحدة الأساسية المكونة للمجتمع، وإن أسباب تفكك الأسرة كثيرة، لكن علينا أن نفتح عيوننا على أشدها خطورة، وهي انهيار العقيدة وخمود جذوة الإيمان في النفوس، إلى جانب ضعف شعور الأبوين بالمسؤولية تجاه الأبناء، بالإضافة

إلى البحث عن الملذات والمسرات بأساليب منحطة، وبوصفها أشياء قيّمة يتهافت عليها الأبوان.

ومن هنا؛ فإن جهودنا في حماية الأسرة تشكل مساهمة كبيرة في حماية المجتمع، وحماية الأمة من التدهور، وحماية العقيدة من الذبول.

٥- لا بد من القول: إن معاناة الناس في تربية أبنائهم متفاوتة، فهناك من الأبناء من تشعر أنه منحة إلهية من أجل مساعدة أبويه على تربية إخوته الصغار، إنه مهذب وذكي ومطيع ونبيه ومجتهد...

ومنهم من يعكر مزاج أسرته عقداً أو عقدين من الزمان، ولهذا لا بد -كما أشرت- من الإكثار من الدعاء لأبنائنا بالهداية والصلاح، ولا ينبغي أن نسأم من ذلك أبداً، لكن أود أن أقول هنا: علينا أن نتخذ من تربية الأبناء ذوي الطبائع الصعبة والمزعجة مفتاحاً لثقافتنا التربوية والأسرية، وعلى سبيل المثال، فإننا إذا كنا نعاني من (عناد) أحد الأبناء، وضعف استجابته للإرشاد والتوجيه، فإن المطلوب ليس الشكوى، ولكن أن نقرأ حول التعامل مع الطفل العنيد، تماماً كما نقرأ لو كان أحد الأبناء مصاباً بفصام الشخصية، أو بمرض غريب يحتاج إلى عناية خاصة.

تعاملنا مع الحالات الخاصة والصعبة يشكل اختباراً لنا، وعلينا أن ننجح في ذلك الاختبار.

أسرة لديها ولد كسول، ولا يحب الدراسة، ما الذي عليها أن تفعله؟

عليها أن تقرأ وتتثقف حول التعامل مع الطفل الكسول، وأن تتخذ موقفاً موحداً وصارماً تجاه محاولته تَرْك المدرسة، بالإضافة إلى استشارة متخصص، واستخدام كل وسائل التشجيع على التعليم،

وهكذا تصبح الصعوبات التربوية مصدراً لإثراء ثقافتنا التربوية، وتجديد عزمنا على المضي قدماً في التهذيب والتوجيه عوضاً عن أن نقف موقف اللامبالاة، أو موقف العجز والاستسلام.

٦- الثقافة التربوية ليست مهمة للأبوين فحسب، إنها مهمة للأسرة كلها، لن يستطيع الأبوان بمفردهما تحمل كل أعباء التربية، فحين يكون لديك في المنزل أبناء في العقد الثالث والثاني والأول، ويكون لديك أطفال دون سن المدرسة، فإن المطلوب هو تعاون كل هؤلاء مع بعضهم في تنمية الآداب والأخلاق الإسلامية داخل الأسرة، والتعاون على محاصرة الأخطاء...

نحن نريد أن نتخذ من أخطاء الأبناء وعثراتهم وإخفاقاتهم مناسبات لإظهار الثقافة العامة للأسرة، هذه بنت رسبت في الاختبار النهائي، وأخذت تبكي وتصيح، هذه فرصة لإظهار كل التعاطف معها، وكل المساندة والملاطفة لها حتى تجتاز الأزمة.

هذا ولد وقعت بينه وبين أخيه مشادة كلامية، وحصل فيها سوء تفاهم وتجاوز لحدود الأدب، هذه فرصة أخرى كي يعتذر المخطئ منهما، وفرصة للآخر كي يبدي كرمه وصفحه.

ولد اغتاب أحد الأشخاص، هذه فرصة للدفاع عن الغائب، والتنبيه على خطأ هذا التصرف... نحن نريد للأشياء التي تباعد الأسر الجاهلة والمفككة أن تكون عوامل لتقوية الروابط الأسرية، وإنضاج المشاعر والعواطف الجماعية، وتحسين درجة الوعي، ونحن نستطيع ذلك بحول الله وطوله.

٧- لعل من أكبر الأخطاء التي نرتكبها في حياتنا العامة، وفي حياتنا الأسرية: الاعتقاد أن الآخرين يفكرون بنفس طريقتنا، كما أن

عليهم أن ينظروا إلى الأشياء نظرة مشابهة لنظرتنا لها، هذا خطأ كبير، كثيراً ما نقع فيه.

إن الله -جل وعز- جعل اختلاف نفوسنا وعقولنا قريباً من اختلاف وجوهنا، وكما أن في اختلاف وجوهنا ثراءً عظيماً، وفوائد لا تحصى، فإن في اختلاف عقولنا ورغباتنا فوائد -أيضاً- كثيرة، ولهذا فإن ما يصلح في التعامل مع أحد الأبناء، قد لا يصلح في التعامل مع أخيه، وإن ما يرغب فيه أحد الأبناء، قد يمقته ابن آخر، وهكذا... والمطلوب: هو إثراء ثقافتنا التربوية على نحو مستمر، وتنويع أساليبنا التربوية مع أبنائنا، وأنا أعرف أن هذا شيء صعب وشاق، ولكن لا بد منه، وإلا؛ فإن الإخفاق قد يكون حليفنا، ونحن نعرف كثيراً من الآباء والأمهات الذين يستغربون لماذا ينجح أسلوب تربوي مع ولد، ولا ينجح مع أخيه، مع أن الذي يستحق الاستغراب فعلاً هو نجاح أسلوب تربوي واحد مع عدد من الأبناء.

٨- سوف تشعرون من خلال المطالب التربوية الحديثة بأننا معاشر الآباء مطالبون بعمل أشياء كثيرة جداً، ربما تفوق طاقاتنا، وتُثقِل كواهلنا، وأنا أعتقد أن هذا الشعور صادق ودقيق، فالتربية تحتاج إلى عمل ومتابعة سبعة أيام في الأسبوع، وأربعاً وعشرين ساعة في اليوم، وهي في بعض الأحيان تشبه حرب العصابات، أو تشبه الحفر في الصخر، هي هكذا، وهذه هي طبيعتها، لكن علينا أن نتذكر شيئين:

الأول: هو أن الجهد الذي نبذله في توجيه أبنائنا جهد مأجور -إن شاء الله-، فنحن السبب في وجودهم، ونحن الذين نرشدهم إلى الخير، وندلهم عليه، ونحن الذين نزرع في قلوبهم حب الله ورسوله،

ونعمل على أن يكونوا فضلاء، ونضحِّي بالكثير من أجل ذلك.

فالمأمول من الله -جل ثناؤه-: أن يجعل صالح أعمالهم في صحائفنا، وأن يرفعنا بدعائهم لنا بعد موتنا، وهذا حين يتحقق يكون فيه مكافأة سخية على جهدنا في تربيتهم.

الثاني: هو أن علينا أن نتذكر أن ما هو مطلوب منا اليوم تجاه أبنائنا، كان مطلوباً من أبنائنا وأمهاتنا تجاهنا، وسيكون مطلوباً من أبنائنا تجاه أبنائهم، فالمسألة دَيْن ووفاء، وأخذ وعطاء.

بالمعرفة والخبرة والتفاؤل والصبر والمثابرة يمكننا أن نفعل الكثير، وسنفعل؛ بإذن الله تعالى.

■ القاعدة الثانية:

(نحن جزء من العالم، ولنا خصوصيتنا)

هذه القاعدة تحتاج إلى فهم على مستوى التفاصيل، وتحتاج إلى استحضار يومي، وعند كل جهد تربوي نبذله، فالتربية في الرؤية الإسلامية ليست من أجل تخريج جيل ناجح وقوي ومؤثر فحسب، وإنما هي في الأساس من أجل تنشئة أبناء مؤمنين صالحين أخيار، يعملون على تحقيق مرادات الله -تعالى- على هذه الأرض، من خلال الدعوة والقيام بأمر الله -تعالى-، وهذا يتم عبر ترسيخ القيم والمبادئ في سلوكاتهم من منظور الإسلام لها، ومن ترتيبه لها في (سُلَّم القيم).

نحن نريد أن نعيش زماننا من خلال الوعي الكامل بكل معطياته، ونريد أن نشارك في صنع الأحداث، والتأثير في الأوضاع العامة، كما نريد لأبنائنا مثل ذلك، لكن كل ذلك سيكون من أجل هدف نهائي عظيم، هو الفوز برضوان الله -تعالى-، وهذا لن يتم إلا إذا جعلنا أسرنا تتعلم كيف تقف عند حدود الله -تعالى- في المنشط والمكره...

إن عنوان هذه القاعدة يشير إلى شيئين أساسيين:

الأول: أننا في شأننا التربوي جزء من العالم الواسع المحيط بنا، بمعنى أننا نتأثر بتياراته ومشكلاته، ونستفيد من طرائقه وأدواته

في تربية صغارنا، ونُصغي إلى كل حِكَمه ومواعظه واكتشافاته بكل حرص وانفتاح، وأنا واثق أننا سنجد الكثير مما ينفعنا في مهمتنا التربوية.

الثاني: مع أننا جزء من العالم، لكننا متميزون عنه على مستويين: مستوى المشكلات، حيث إن مشكلات الأطفال في تونس، أو باكستان، أو ماليزيا، ليست هي عين مشكلات الأطفال في فرنسا، أو أستراليا، أو كندا؛ فالأطفال في هذه الدول ينتمون إلى عوالم مختلفة بكل ما تعنيه الكلمة ومستوى المضامين التربوية، والقيم، والمبادئ، والمفاهيم التي نرى أنها مهمة لتنشئة أبناء صالحين.

إن هذه النوعية من العلاقة مع العالم من حولنا على مستوى التربية -وغير التربية- تشكل مصدراً للبلبلة والإزعاج والانقسام؛ لأن هذا سيتطلب من أسرنا أن تدقق في كل شيء، وأن تتعلم كيف تختار ما يلائم أبناءها، وكيف تميز بين الجيد والرديء من الأفكار والقيم المطروحة على الساحة التربوية، وهذه عملية صعبة جداً في ظلال انتشار الفكر السطحي كانتشار النار في الهشيم، لكن ليس أمامنا أي خيار.

ولعلي أشرح ما أريده من وراء ذكر هذه القاعدة عبر الآتي:

١ - لماذا نحن جزء من العالم؟ هذا سؤال مهم؛ لأن بعض الناس يتجاهلون تماماً هذه الحقيقة، وبالتالي؛ فإنهم لا يستطيعون فهم ما يريده أبناؤهم، ولا فهم أشكال معاناتهم، ولا كيفية التعامل مع كل ذلك.

لم نكن في يوم من الأيام أكثر انتماءً للعالم مما نحن عليه اليوم، فوسائل الاتصال والبث الفضائي والإنترنت والعولمة بأدواتها الجبارة، كل

ذلك ألغى الحدود بين ما كنا نسميه داخل البلاد وخارجها.

العولمة تعولم الأشياء وتعولم الأفكار والتطلعات والأذواق والمعايير، وتعولم -أيضًا- المشكلات، وأنماط الانحطاط...

كنا في الماضي نربي في بيئات مغلقة نسبياً، لكننا اليوم نربي وأبواب بيوتنا ونوافذها مشرعة على العالم من أقصاه إلى أقصاه، ولهذا بالطبع حسناته وسيئاته، ولكن إذا لم ننتبه، ونفهم ما يجري على نحو جيد؛ فقد تغطي السيئات على الحسنات.

نحن كذلك جزء من العالم بما فطر الله عليه البشر من طبائع وحاجات وتطلعات... فما يُدخل السرور على مئة شخص في الصين هو نفسه الذي يُدخل السرور على مائة شخص في لبنان أو أمريكا، وما يُزعج مئة شخص في هولندا هو نفسه الذي يزعج مئة شخص في السودان والفلبين، وهذا طبعاً على مستوى الكليات؛ أي بعيداً عن التفاصيل الدقيقة التي يختلف فيها الناس في البلد الواحد، وأحياناً في الأسرة الواحدة، الناس يحبون الثناء والمال والعقار والوجاهة والنفوذ، ويبحثون عن الراحة ورؤية الأشياء الجميلة والمرح والمجاملة... والناس جميعاً يتضايقون من الفقر والمرض والزحام والذم، ويتقززون من رؤية القاذورات والأشياء القبيحة... ولنا أن نقرأ قول الله -تعالى-: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴾ [آل عمران: ١٤].

ما دامت الطبيعة البشرية متشابهة -إن لم نقل: موحدة- لدى الناس في كل مكان؛ فهذا يعني: أن حاجات أبنائنا ستكون قريبة من

حاجات أبناء الناس البعيدين عنا في ثقافاتهم وانتماءاتهم، وسيواجه أبناؤنا في مراحلهم العمرية المختلفة نحواً مما يواجهه أبناؤهم.

نحن جزء من العالم؛ لأن الغرب يملك خبرات كثيرة جداً على المستوى التربوي، ولديه كم هائل من البحوث والدراسات والإحصاءات، وقد تمكن من نشرها عبر أنحاء العالم، وقد تغلغلت في كل شرايين الفكر التربوي، وأدبيات التربية لدى كل الشعوب المتحضرة، والسائرة في طريق التحضر، ولا يستطيع أحد أن يغضّ الطرف عنها.

٢- في مسألة الاتصال بالمحيط العالمي والتمايز عنه: هناك شيء مهم هو أن نلاحظ أننا في حاجة إلى العالم في الوقت الذي نخاف فيه من تأثيراته السلبية فينا، وأعتقد أن هذا ينبغي أن يكون هو موقف كل العقلاء.

نحن لا نخشى من الثقافات الأجنبية، ومن تبعات الاحتكاك بها على الصعيد التربوي، في كل ما يعود إلى الوسائل والأساليب والطرق التربوية، وإلى كل ما يعود إلى تشخيص دوافع الأطفال وتحليل سلوكاتهم، بل إننا في حاجة ماسّة إلى الدراسات والخبرات العالمية في هذه المسائل، وإني ألمس في الكتب التربوية المترجمة الكثير من الأفكار والملاحظات الذكية التي يمكن أن نستفيد منها فوائد لا تقدَّر بثمن، وإن كانت لا تخلو من بعض المبالغات التي تكون عادة عند الذين يعيشون في حالة عالية من الاستقرار والأمن ورغد العيش، ويمكن أن ننظر إلى ذلك على أنه من الخصوصيات الثقافية.

٣- إذا أردنا أن نتحدث عن خصوصياتنا على الصعيد التربوي؛ فإننا نجد أنها تكمن في أمرين:

أ- مبادئ وقيم أخلاقية نابعة من عقيدتنا ونظرتنا للحياة، ومن الأحكام الشرعية التي توجه سلوكنا وسلوك أبنائنا، وقبل أن أشير إلى شيء منها أحب أن أقول: إن هناك مشتركاً ثقافياً بين كل الأمم، وهذا المشترك الثقافي يشكل أكثر من ثمانين في المئة من القيم والأخلاق؛ مثل: الرحمة والإحسان، والعدل والتسامح، وإكرام الجار، وبر الوالدين، والوفاء، والصدق، والشجاعة... وإن كان تجسدها في الواقع يختلف من بيئة إلى أخرى؛ فأنت لا تجد أمة تُلَقِّن أطفالها في المدارس: أن الكذب والسرقة والغدر والظلم وإهانة الوالدين أخلاق طيبة عليهم التخلق بها!!

من خصوصياتنا على صعيد القيم: الكثير من العبادات؛ فالصلاة والزكاة والحج وصوم رمضان تشكل أركان الإسلام الكبرى، ومنها ما يؤدى يومياً -مثل الصلاة-، وهي تأخذ حيزاً كبيراً من عناية المربي، كذلك في مسائل العورة والطهارة، ومسائل الاتصال، والصداقة بين الجنسين لنا خصوصية غير موجودة لدى كثير من الأمم، وقُلْ مثل هذا في مسائل الطعام والشراب والسمر والاستمتاع، حيث إن عندنا فيها أحكاماً شرعية واضحة، ولا يستطيع المربي المسلم أن يغض الطرف عن سلوك أولاده فيها.

وربما كان على رأس خصوصياتنا الثقافية نظرتنا إلى الحياة الدنيا، وأنها مزرعة للآخرة، ونظرتنا إلى العلاقة بالله -جل ثناؤه-؛ فهي ليست علاقة معرفة وإقرار بالوجود فحسب، وإنما هي علاقة حب وتعبد وخضوع والتزام بأمره، والوقوف عند نواهيه، والسعي إلى مرضاته في كل حين: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢-

.[١٦٣

ب- سُلَّم القيم، وإعطاء كل قيمة منزله تليق بها، وهذا يشكل الفارق الأساسي بين أمم الأرض اليوم.

إن قانون السلّم القيمي هو أنه حين تتزاحم قيمتان -وهذا يحصل في كل يوم مرات عديدة-؛ فإنه تتم التضحية بالقيمة الأقل شأناً من أجل الحفاظ على القيمة الأعظم شأناً. إن نجاح الأبناء قيمة، وهو -أحياناً- يتطلب السهر من أجل النجاح إلى ما بعد منتصف الليل -كما هو الحال في ليالي الاختبارات- وصلاة الفجر في موعدها قيمة أعظم، ولهذا فإن أي سهر من أجل النجاح ينبغي أن يتم في إطار التمكن من أداء صلاة الفجر في وقتها.

السكنى في مكان جميل قيمة، لكن بر الوالدين قيمة أعظم، ولهذا فإن بر الوالدين يقدم عند عدم رضاهما عن تلك السكنى.

الستر قيمة، والتجمل قيمة، لكن ستر البنت لما يجب عليها ستره قيمة أعظم، ومن هنا؛ فإن كل أشكال التجمل ينبغي أن تتم في إطار الستر. السفر لطلب العلم قيمة عظيمة، ولكن الاستقامة على أمر الله قيمة أعظم، فإذا غلب على الظن أن سفر أحد الأولاد للدراسة سيؤثر في تدينه، فإننا نتوقف عن إرساله وهكذا...

٤- يختلف التنظير التربوي لدى المسلمين عن التنظير لدى غيرهم، وأستطيع أن أقول بصدق واطمئنان: إن التنظير التربوي لدى كثير من الأمم يعاني من نوع من الاختناق؛ لأن إغراء الأبناء بأن يكونوا طيبين وفضلاء سيظل ضعيفاً ما لم ينسجم ما نعِدهم به مع طموحاتهم العميقة، وذلك لأن الاستقامة تعني الابتعاد عن كثير من الشهوات.

كم سيكون من الصعب حمل ظمآن شديد الظمأ على عدم الشرب من ماء بارد أمامه؟ وكم ينبغي أن يكون ما سنعرضه عليه كبيراً حتى يستجيب إلينا؟

إنني أشعر بنوع من الأسى والتعاطف حين أجد تربوياً غربياً يتحدث عن عالم الروح والمعنى، وعن المكافآت السخية التي يجدها المرء في داخله حين يكون فاضلاً، إنه فعلاً أشبه بطائر نشيط يرفرف داخل قفص جميل، كلام جميل، وعبارات رائقة؛ لكنها تفتقر إلى الإقناع؛ لأنها تفتقر إلى المضمون، ومن هنا؛ فإن الأسرة تشهد في الغرب نوعاً من الانهيار السريع، كما أن المجتمعات باتت هناك شبه مفككة، وليس هناك أي أفق لإنتاج أفكار إصلاحية كبيرة تصلح للمعالجة.

هذا (فولتير) الفذ والعبقري يفصح عن اعتقاد قوي -على خلاف ما هو مشهور عنه- بوجود الله -تعالى- وبحكمته، وقصور الأذهان عن الإحاطة به، لكنه لا يملك جواباً حيال انتشار الشر والظلم بين الناس، كيف أذن الله -تعالى- بوجوده؟! لأن الملحدين في عصره قالوا: أين العدل والطيبة في هذا الكون، ونحن أمام أمرين:

- إما أن الله كان في استطاعته أن يتحاشى الشر، ولم يرد ذلك!
- وإما أنه أراد أن يتحاشاه، ولم يستطع!!

وفي الحالة الأولى هل يمكن أن نقول: إنه عادل؟

وفي الحالة الثانية هل يمكن أن نقول: إنه قادر على كل شيء؟

وليس لدى (فولتير) جواب محدد على هذا، أما المسلمون؛ فالجواب عندهم واضح وضوح الشمس، وهو يتلخص في أن هذه الدنيا دار ابتلاء، وهي بمثابة الفصل الأول من رواية ذات فصلين،

والآخرة هي دار الجزاء والمحاسبة، واقتصاص الحقوق من الظالمين للمظلومين، وهي بمثابة الفصل الثاني من الرواية، ولهذا؛ فإن وجود الأشرار شيء طبيعي، وعدم معاقبتهم في الدنيا هو -أيضاً- شيء طبيعي، وهذا واضح في آيات جلية، منها قوله -تعالى-: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥]، وقوله: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧-٨]، وآيات أخرى كثيرة.

إن الإلحاد والحرمان من هدي الوحي، سيجعل اهتمام الباحثين في التربية ينصبّ على الجانب العقلي والجسمي من التربية، مع إهمال الجانب الإيماني والروحي، كما أنهم سوف يوجهون طروحاتهم في اتجاه تحقيق الفوز والنجاح الدنيوي بالمعايير المادية دون الاهتمام بالصلاح الذي يفضي إلى السعادة الأخروية، وهذا يجعل تنظيرنا التربوي مختلفاً اختلافاً كبيراً.

إن المربي المسلم حين يتحدث عن القدوة في التربية يتحدث عن إنسان هو في نظر الشريعة الغراء إنسان فاضل، كما أنه حين يتحدث عن المنهج التربوي، وعن أهداف التربية يتحدث عن أمور تساعد على تنشئة أبناء صالحين بالمعايير الإسلامية، وفي إطار الآداب الإسلامية، ومن هنا؛ فإن خصوصيتنا التربوية تتجلى على نحو عام في الأهداف والمبادئ والقيم والآداب، وفي ترتيبها داخل السلم القيمي.

المشتَرك التربوي بيننا وبين الأمم الأخرى أكثر ما يتجلى في الأساليب والأدوات والإجراءات، وعلينا معاشر المربين أن ننشر الوعي بهذا وذاك.

القاعدة الثالثة:

(هل البيئة هي كل شيء ؟)

جَعَلْتُ هذه القاعدة في صيغة سؤال حتى أستنهض همم قرائي الكرام للتفكير معي في هذا الأمر، ولو قلت: البيئة هي كل شيء، لما كنت مبالغاً أو بعيداً عن الصواب، طبعاً الصغار يحيون في بيئات عديدة: المنزل، والمدرسة، والشارع، والحي، لكن ما أقصده هنا تحديداً هو بيئة الأسرة داخل المنزل، فهي في الحقيقة الأكثر تأثيراً في حياة الأطفال.

تتكون بيئة الأسرة من العديد من العناصر، أهمها: شخصيات أفراد الأسرة، والقيم التي يحملونها، ونوعية العلاقات القائمة بينهم، بالإضافة إلى أسلوب الحياة داخل الأسرة، ووضعية المنزل ومواصفاته... والحقيقة أننا كثيراً ما نهمل التفكير في هذا الأمر، مع أنه في غاية الأهمية، حتى إنه يحتاج فعلاً إلى هندسة خاصة، وعناية فريدة.

ليس أدل على تأثير البيئة في شخصيات الأطفال -على نحو خاص- من أن أكثر من ٩٩ ٪ من الذين ينشؤون في مجتمع مسلم يكونون مسلمين، ولك أن تقول هذا في الذين ينشؤون في مجتمعات

نصرانية وبوذية ويهودية... ومن الواضح أنَّ لدينا إلى جانب المشاهدة والخبرة اليقينية فيضاً من الدراسات التي تؤكد على أهمية توفير بيئة أسرية جيدة، ومن تلك الدراسات: دراسة تم إجراؤها حول أثر قيام الأم بمفردها بعملية التنشئة داخل الأسرة، وأوضحت النتائج أن ذلك ينعكس بالسلب على شخصية الطفل بسبب عدم توازنها، وهو يتجسد في غلبة السلوك الطفولي عليه حتى مع وصوله إلى مرحلة المراهقة، وميوله إلى الاعتماد على الآخرين والخضوع، وأحياناً يؤدي إلى العكس؛ أي: اتصاف الطفل بالتسلط والعناد، مع وجود فوارق بين الجنسين.

ودلت دراسة أخرى: على أن الأطفال الذين يشترك في تربيتهم الأم والأب معاً يتمتعون بقدرات أفضل في القراءة والكتابة، وإجراء العمليات الحسابية إذا ما قورنوا بالأطفال الذين نشأوا في كنف الأم، أو كنف الأب، وهذا كله لأن أحد الأبوين لا يستطيع بمفرده تكوين بيئة أسرية جيدة، فتكامل الأبوين والتفاعل بينهما وإشرافهما المباشر على تربية الأبناء، أمور أساسية في تكوين البيئة المطلوبة.

هذه رسالة تحذيرية إلى الآباء الشكليين والأمهات الشكليات المشغولين بكل شيء إلا تربية أبنائهم.

وفي دراسة غير متوقعة النتائج، قارن فيها بعض علماء النفس الأمريكيين بين عينة من بنات وُلِدن ورُبّين في السجون مع أمهاتهن، وعينة أخرى من أطفال الأثرياء المولودين في جو من الترف والرفاهية، وكانت النتيجة أن الأطفال الذين نشأوا على أيدي الخدم والمربيات المستأجرات في القصور -نظراً لانشغال أهلهم عنهم- لم يتفوقوا في شيء على أطفال السجينات، وذلك بفضل بقاء هؤلاء إلى جانب

أمهاتهم، على الرغم من ظروف السجن.

وأجريت دراسة في جامعة الأمير نايف حول الواقع الاجتماعي لأسر الأحداث العائدين إلى الانحراف، وتبين أن أولئك الأحداث يفتقرون إلى العلاقات الأسرية السوية، فالعلاقة بين الحدث وإخوانه مقطوعة، وأحياناً يسودها العداوة، كما أن العلاقة بين الأبوين والحدث غير سوية، حيث يستخدم الأبوان أساليب غير تربوية: مثل انخفاض مستوى الرقابة والضبط، ومثل السيطرة والقسوة الزائدة، ومثل الإهمال والتفرقة بين الأبناء.

وأثبتت دراسات عدة: أن الجو العائلي حين يفتقر إلى الرقة والحنان والعطف والطمأنينة، يدفع المراهقين إلى اكتشاف قوة وعمق العلاقة بأقرانهم، والذين يجدون لديهم من الأمان والتفاهم والمساندة ما فقدوه لدى أسرهم، وهذا كثيراً ما يفضي إلى انحرافهم.

في الأسرة المتعلمة والمهتمة، يكمل كل الأبناء أو معظمهم تعليمهم، ويتخرجون من الجامعات، وفي الأسر غير المتعلمة، وتلك التي لا تعرف قيمة العلم يترك الأطفال المدارس في وقت مبكر، وتكون الحجة دائماً: الأولاد لا يحبون العلم، لا يرغبون في المطالعة، ميولهم عملية... وهؤلاء لا يعرفون أن الرغبات والميول يصنعها الكبار، ويزرعونها في نفوس الصغار، وحين لا يعرف الكبار قيمة إكمال التعليم، ولا يهتمون بذلك، فإن من المتوقع أن تكون نسبة كبيرة من أبنائهم فاقدة للرغبة في السير في الطريق العلمي.

مكونات البيئة الأسرية المطلوبة:

١ - أبوان جيدان:

الأبوان في الأسرة هما سبب وجودها، وهما عمادها، وملحها،

وماؤها، وهواؤها، ومن خصائصهما الشخصية، ومن نوعية العلاقة بينهما، ثم من علاقتهما مع أطفالهما يتكون الجو الإنساني والروحي في المنزل، وأستطيع أن أقول بوضوح: إن التربية سهلة ومثمرة وناجحة إذا كنا نحن الكبار أشخاصاً جيدين، أو لنقل: إذا كانت الفجوة بين ما نقوله وبين ما نفعله ضيقة وضيقة جداً، أما إذا كنا نطلب من أبنائنا الالتزام ببعض الفضائل التي لا نلتزم بها، ونطلب منهم الكف عن بعض السلبيات التي نقع فيها، فإن تربيتنا لصغارنا ستكون صعبة وعقيمة، ومخيبة للآمال...

إن الأطفال في حالة كهذه سيقولون في أنفسهم: انظروا في المرآة حتى تروا أن ما حملكم على التقصير في بعض الواجبات والوقوع في بعض الأخطاء هو نفسه الذي يحملنا على ذلك، مع أنكم أنتم الكبار الناضجون، والعارفون بالعواقب... وقد صدق من قال: كما نكون تكون تربيتنا.

إن في إمكاننا أن نهرب من رؤية الأطفال، وأن نظن أنهم غافلون عما نفعل، لكن هذا غير صحيح، إن الاختباء منهم غير ممكن، إنهم إن لم يروا ما نخفيه اليوم سيرونه غداً، ومن أسرّ سريرة ألبسها الله رداءها؛ وما أجمل قول الشاعر العربي القديم:

ومهما يكن عند امرئ من خليقة
وإن خالها تخفى على الناس تُعلَم

تدل بعض الدراسات على أن أقوى نموذج يؤثر في حياة الطفل هو الوالد من الجنس المماثل، أي أن الذكور يتأثرون على نحو أساسي بآبائهم، والبنات بأمهاتهن، وهذا طبيعي ومفهوم؛ لأن الأبناء يطمحون إلى أن يكونوا في المستقبل على شاكلة آبائهم وأساتذتهم

ومن يعتقدون أنهم ناجحون وعظماء، وكذلك البنات... ومن هنا؛ فإن على الرجل حين يخطب فتاة أن يتذكر أنها هي التي ستصنع معه الجو الذي سيتربى فيه أولاده، وأنها ستكون المؤثر الأول في بناته، وعلى المرأة أيضاً حين تستجيب لخاطب أن تتذكر أنه سيكون المؤثر الأول في أبنائها.

يخبرنا بعض البحوث بأن الأطفال الذين لم يظفروا بنماذج جيدة يقتدون بهم في حياتهم يعانون أكثر من الأطفال الذين وجدوا أمامهم نموذجاً يحبونه ويُعجبون به.

ودلت إحدى الإحصائيات: على أن الأطفال يكونون عرضة لإدمان التدخين ثلاث مرات أكثر من غيرهم، إذا كان آباؤهم يدخنون، وتبلغ نسبة إصابة الأطفال بالوزن الزائد أو البدانة المفرطة حين يدخلون في مرحلة البلوغ حوالي (٧٠ - ٨٠٪) إذا كان أحد الأبوين يعاني من السمنة المفرطة.

إننا فعلاً نرسم من خلال سلوكنا اليومي مستقبل سلوك أبنائنا، بل إن الأمر يتجاوز ذلك، إننا من خلال البيئة داخل المنزل نعرّف الطفل على ذاته، ونصنع نوعية طموحاته وتطلعاته نحو المستقبل، كما نحدد سقف تلك التطلعات وعتبتها، أي أقصى ما يريده الطفل، وأدنى ما يمكن الرضا به.

إن الفتاة حين تلاحظ أن والدها يتعامل مع والدتها بتهذيب، ويحترم ذكاءها، فإنها تعتقد أن من حقها أن تحظى بزوج يعاملها المعاملة نفسها، وسوف تسعى إلى ذلك، وتطالب به.

وإذا كان الأب يقدم نموذجاً لبرود المشاعر والتجاهل أو التسلط؛ فإنها سوف تقلل من سوية ما تطمح إليه حين يتقدم إليها الخُطّاب،

وإذا لم يتقدم إليها أحد، فربما سعت إلى الصديقات، وإلى (الإنترنت) كي تتعرف على من يملأ ما لديها من فراغ عاطفي، وهكذا تكون قد وضعت نفسها على بداية طريق الانحراف.

نحن لا نريد أن نفرض قيمنا وآدابنا وأخلاقياتنا على أبنائنا، لماذا؟ لأن القيم لا تفرض فرضاً، ولك أن تلمح ذلك في قول الله -جلّ وعلا-: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، وقوله: ﴿أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴾ [يونس: ٩٩]، هل نريد فعلاً أن ننقل القيم التي نؤمن بها إلى أبنائنا، إذن هناك شيء واحد يمكّننا من ذلك: هو أن نجذبهم إلينا، وأن يروا في أفعالنا صدقنا ومصداقيتنا، وعزيمتنا وإخلاصنا...

يقول أحد الشباب: حين كنت صغيراً خرجت مع أبي في سيارته، وإذا بعجوز يعبر الشارع متوكئاً على عصاه، وقد تحول لون إشارة المرور إلى اللون الأخضر وهو في منتصف الطريق، وقد انطلقت السيارات من حوله بسرعة فائقة، فما كان من أبي إلا أن أوقف سيارته، وقفز منها، وقام بدور رجل المرور، وأوقف السيارات، وأخذ بيد الرجل حتى عبر به الشارع، إنني أشعر أنني تعلمت من أبي درساً في المبادرة والشهامة قد لا أتعلمه إذا قرأت في ذلك كتاباً مؤلفاً من ثلاثمائة صفحة.

إن رحلة تربية الأبناء على النحو الجيد سوف تبدأ من عندنا حين نقرر أن نربي أنفسنا، ونضغط عليها كي نربي أبناءنا، ومن غير هذه العزيمة؛ فإن الخسارة ستكون فادحة!

إن الأمة الفقيرة ليست هي التي لا تملك الكثير من المال، لكنها تلك التي يتلفت أطفالها يمنة ويسرة؛ فلا يرون إلا النماذج الباهتة،

ورجالاً ونساء من الدرجة الرابعة، وإن الأسرة الفقيرة ليست هي التي تسكن في بيت متواضع، لكنها الأسرة التي لا يرى صغارها في كبارها شيئاً يملأ العين، هذا هو المعيار الأخلاقي والحضاري للغنى والفقر.

٢- بيئة مرحة ومريحة وهادئة:

إن الله -عز وجل- وهب الطفل شخصية يسكنها الأمل والمرح والطمأنينة والشعور بالثقة، وحب التساؤل والتطلع إلى التعلم، بالإضافة إلى الطيبة والبراءة... ومع مواجهة صعوبات الحياة والتوترات والخلافات بين الأبوين، والأخبار السيئة التي يسمعها من هنا وهناك يخبو بريق روحه، وتبدأ الهموم في شق طريقها إلى نفسه... نحن مطالبون بأن نوفر البيئة التي تساعد الطفل على الاحتفاظ بأكبر قدر ممكن من المعاني الرائعة التي زوده الله -تعالى- بها، وهذا يحتاج إلى جهود كثيرة، لعل منها:

أ- التعامل مع الطفل على أنه صادق وموثوق وطيب وحسن النية.

ب- بيت فيه قدر كبير من الهدوء والسلام والأمن.

ج- حب وتعاطف وتقدير واهتمام ولطف.

د- درجة حسنة من المزاح والمرح والتفاؤل.

هـ- التقليل من النقد لمن في البيت، ولمن خارجه قدر الإمكان.

و- لا تثقل الطفل بالأنشطة والدراسة في الصباح والمساء، وحاول فهم حدود طاقته، واعمل على أن يؤدي كل واجباته بشغف وإقبال.

ز- مراعاة الفروق الفردية بين الأبناء، وتوخي العدل، وترك المقارنة السلبية.

ح- احترام متبادل، وتفهم للظروف والأسباب التي قد تجعل الصغير يقع في الخطأ.

ط- الاعتذار عند وقوع الخطأ، سواء أكان ذلك من الكبار أم الصغار.

ي- غض الطرف عن بعض الأخطاء والهفوات، فالناس هكذا يصيبون ويخطئون.

٣- المكان يصنع المشاعر:

لا نستطيع ونحن نتحدث عن البيئة الجيدة أن نتجاوز مسألة المكان والمنزل الذي يضم أفراد الأسرة، والحقيقة أن تأثير المكان في الإنسان كبير جدًّا، وإننا في البداية نقوم بهندسة منازلنا، ثم تقوم مساكننا بهندسة مشاعرنا، وإن هناك دراسات ومشاهدات كثيرة تدل على أن الناس حين يكونون في مكان واسع وجميل ومكيف وهادئ ومنظم تتولد لديهم مشاعر الرضا والثقة والقوة، ويتبادلون فيما بينهم مشاعر التعاطف واللطف، وحين يكونون في مكان ضيق وحار وفوضوي ووسخ؛ فإنهم يتبادلون فيما بينهم مشاعر الضيق، وتتولد لديهم مشاعر وأفكار سوداوية، وبذلك يتحول البيت إلى بيئة طاردة، وإن من المألوف جداً في بلاد كثيرة أن تحث الأم أولادها على مغادرة المنزل -بسبب ضيقه- إذا كان لديها بعض صديقاتها، وطبعاً يغادرونه إلى الشارع!

في اعتقادي أن على الأم أن تجعل من بيتها روضة غناء من خلال النظافة والتنظيم والتنسيق، ومهما كانت أحوال الأسرة ضيقة، فإن في إمكان المرأة أن تفعل الكثير على هذا الصعيد.

وقد تطورت فنون تنظيم المساكن وترتيبها وتزيينها، ومعظمها

قائم على الكثير من الدراسات والمعطيات العلمية.

إني أدعو الأبوين والأم خاصة إلى الاهتمام بالمنزل؛ ليكون مكاناً للوئام والراحة والسرور، ولا ريب في أن ذلك ينبغي أن يظل في إطار الاعتدال والاتزان.

إن موضوع البيئة الأسرية يتطلب الكثير من القول، وربما عدت إلى شرح وتفصيل شيء مما تحدثت عنه، بغية توضيح الصورة؛ والله المستعان.

■ القاعدة الرابعة:

(التربية تفاعل)

يحصل التأثير والتغير حين يحدث التفاعل، وكما هو معروف؛ فقد يحصل اختلاط وتقارب دون أن يحدث تفاعل؛ فقد تكون في مجلس وتستمع إلى شخص مدة نصف ساعة دون أن تتأثر بشيء مما قاله، لماذا؟ لأنك وأنت تستمع تشعر بعدم مصداقيته، أو تشعر بالملل، أو تشعر بأن المتحدث يهرف بما لا يعرف... هكذا التربية الأسرية، فقد يختلط أفراد الأسرة مع بعضهم كثيراً، لكنك لا تشعر أن الصغار يُظهرون تجانساً وتشابهاً جيداً مع عقول الكبار ونفوسهم وسلوكهم، لماذا؟ لأن هناك حوائل مهمة منعت حدوث التفاعل، وبالتالي التأثر.

إن في إمكاني القول: إن الأطفال يشعرون أنهم لا يعرفون أي شيء عن الأشياء التي تحيط بهم، وبما أن الجهل يولِّد الخوف؛ فإنهم يندفعون إلى التعلم بكل ما أوتوا من قوة، ونجد الطفل ابن الثالثة يوجه لأبويه وإخوته الكبار عشرات الأسئلة كل يوم، ولا شك في أن أجوبتهم تؤثر فيه، وتنقله من حال إلى حال بدليل تغير صيغة السؤال، وتغير الأشياء والموضوعات محل التساؤل على نحو مستمر.

إن صيغة (تفاعل) من الصيغ التي تدل على اشتراك شخصين فأكثر فيما تدل عليه، ومن هنا؛ فإن التربية ليست عبارة عن استجابات تصدر من الأطفال لتوجيهات آبائهم أو وضعياتهم، وإنما هي عمل في اتجاهين، فالآباء والأمهات مطالبون كذلك بالتفاعل مع أبنائهم، يستمعون إليهم، يتعاطفون معهم، يستفيدون من بعض ملاحظاتهم، يغيّرون في أسلوب تربيتهم بناء على تجاربهم المتراكمة، فإن لم يقم الكبار بهذا؛ فإن التفاعل سيكون ناقصاً، وسيؤثر سلباً على تفاعل الأبناء أيضاً.

وسأحاول هنا الإجابة على ثلاثة أسئلة:

- سؤال يتعلق بكيفية مساعدة الطفل على التفاعل.
- سؤال يتعلق بشرح الأشياء التي يتفاعل معها الطفل.
- أما السؤال الثالث؛ فيتعلق بالأمور التي تجعل التفاعل ضعيفاً، أو معدوماً.

١ - كيف نساعد الطفل على التفاعل؟

أ- من القواعد الفكرية المقررة: أن الشيء هبة علاقاته، وأريد من هذا هنا أن أبناءنا سيكونون -بإذن الله تعالى- من جنس العلاقات التي نقيمها معهم، ويقيمونها معنا، فهم يتعلمون الرقة والانفتاح والتهذيب واحترام القيم والمبادئ... من خلال معايشتهم لأهل ترسخت هذه المعاني في نفوسهم وعقولهم، ويتعلمون الخشونة والبذاءة والجفاء والأخلاق السيئة كذلك من خلال معايشتهم لأهل تظهر هذه السلبيات لديهم.

هذا يستدعي منا أن نراقب بدقة كل أشكال التفاعل بيننا وبين صغارنا؛ لأنه هو مصدر تكوينهم الروحي والعقلي.

ب- أجب على تساؤلاته؛ لأنه يتعلم منها الكثير، وإذا سأل في وقت غير مناسب، فقل له: الآن لا أستطيع أن أتحدث معك، وإذا كنا على مائدة العشاء، فسيكون في إمكانك السؤال عن أي شيء.

وإذا سأل سؤالاً يصعب استيعابه لجوابه، أو كان في الجواب شيء من الحرج، فلا تنهره، ولا تتجاهله، وقل له: غداً عندما تكبر ستفهم هذا الأمر بسهولة، وحين يكبر الطفل، ويصبح في المرحلة المتوسطة، فإن من المستحسن أن نطلب رأيه أولاً فيما يسأل عنه، فإذا قال أبي -مثلاً-: لماذا يكذب بعض الناس؟ فقل له: هذا سؤال مهم، وقبل أن أجيبك أريد منك أن تقول لي أنت: لماذا يفعلون ذلك، وإذا قالت البنت لأمها: أمي لماذا يتضايق كثير من الناس من النصيحة؟ فلتقل لها: خبريني أنت أولاً عن سبب ذلك، وهكذا...

ج- شيء جيد أن نتحدث مع أبنائنا عن تطلعاتهم وطموحاتهم، وعن الأشياء التي تضايقهم، إننا بذلك نتيح لهم الفرصة كي يصوغوا أحلامهم ومشاعرهم في طرح منطقي، ونتيح لنا فرصة التوجيه والتشجيع والمؤازرة؛ والمكسب الأساسي يتمثل في فتح قناة للتفاعل بيننا وبينهم.

د- حاول أن تحدثه عن المسلّمات التي نؤمن بها، وعن الأمور التي لا يمكن أن نساوم عليها، وحدِّثه عن المخاطر التي يمكن أن يواجهها من خلال كثرة خروجه من المنزل مع جماعات الرفاق، والمهم أن نسمع رأيه في كل ذلك.

هـ- هناك قرارات صغيرة يومية، يمكن أن نتخذ من مشاركة الأبناء فيها محرّضاً لهم على التفاعل معنا، وذلك مثل وقت وضع المائدة، والخروج إلى مكان للنزهة، وتوزيع بعض المهام داخل المنزل...

و- بعض الآباء والأمهات يتخذون من التكتم الشديد حول أشياء كثيرة أساساً في التحدث أمام أبنائهم، ومع أننا متفقون على أنه ليس من المصلحة أو المقبول أن يطّلع الصغار على كل شيء، لكن من المهم أيضاً ألا يشعر الأولاد بالخوف من السؤال عن بعض الأمور التي تؤثر في حياتهم، مثل وضع أبيهم في العمل، ومثل دخله الشهري، ومثل علاقته المتوترة مع بعض أقربائه...

إن وضع حدود دقيقة في هذا غير ممكن، لكن الأطفال يسمعون من أصدقائهم الكثير عن مناقشاتهم مع أسرهم، والكثير مما يمكن أن يسمى أسراراً خطيرة، والمهم ألا يشعر الأولاد أنهم غائبون ومغيبون وغير موثوقين، والأهم من ذلك شعورهم بأنهم يتكلمون مع أهليهم بأريحية.

٢- مع أي شيء يتفاعل الأطفال؟

هذه نقطة مهمة؛ لأن كثيراً من الآباء والأمهات يشكون من انحراف بعض أبنائهم، أو من تقصيرهم في مدارسهم، ويقولون: إننا مللنا من كثرة توجيههم، وأمرهم ونهيهم، وتحفيزهم، ونحن نشعر وكأننا نتحدث مع جدران، وليس مع بشر! هم لا يعرفون أن كثرة الوعظ للأبناء وكثرة إرشادهم ليست صحيحة، بل تدل على وجود مشكلة حقيقية، هي انعدام أو ضعف التفاعل الأسري.

لو أن الأطفال ينفعلون بكل حكمة أو نصح يسمعونه؛ لكانت التربية من أسهل الأعمال والمهمات، لكن المؤسف أن الأمر ليس كذلك، إنهم في الحقيقة يتفاعلون -ولا يبتعد الكبار كثيراً عنهم في هذا- مع ما لدى الكبار من مشاعر واتجاهات، ومع ما يشاهدونه من أعمالهم وسلوكاتهم ومواقفهم، وقد كان القدماء يدركون هذا على

نحو ممتاز، حتى قال أحدهم: «حال رجل في ألف رجل خير من قال -أي قول-: ألف رجل في رجل».

من هنا؛ فإننا قد نجد أُمّاً لا تحمل سوى شهادة الثانوية، ومع ذلك؛ فقد نجحت في تربية أبنائها أعظم من نجاح أمٍّ تحمل درجة (البكالوريوس) في التربية، وذلك لأن الأولاد لا يتفاعلون مع ما لدى والدتهم من أفكار ومفاهيم ومقولات تربوية، وإنما يتفاعلون مع المكونات التي جعلت منها شخصية مستقلة، وصاحبة مسؤولية.

دعونا نتساءل: كيف ستكون استجابة طفل لنهي أمه عن الكذب، وهو يسمعها وهي تكذب مع أبيه وجارته؟

وكيف سيكون استجابة طفل لأمر أبيه له بالذهاب إلى صلاة الجماعة، أو المذاكرة بجدية، أو التقليل من الجلوس أمام التلفاز، وهو يرى أباه يمارس عكس ذلك تماماً؟

الجواب معروف، ولا يحتاج إلى تعليق.

وهنا أذكّر بما كنت ذكرته حول الجوّ الأسري، ومسألة التربية بالقدوة.

٣- أمور تجعل التفاعل ضعيفاً:

أ- من المهم أن نتنبه دائماً إلى أننا معاشر الآباء والأمهات ننتمي إلى جيل غير الجيل الذي ينتمي إليه أبناؤنا وبناتنا، وهذا وحده كافٍ لإيجاد مشكلة في التفاهم والتفاعل داخل الأسرة.

إن من الملاحظ: أن الجيل الجديد يميل أكثر إلى التحرر من القيود والتقاليد، على حين أن جيل الآباء يكون تقليدياً أكثر، وأشد حرصاً على التمسك بالعادات والأعراف الاجتماعية، ولهذا؛ فإن كثيراً مما يراه الجيل الجديد لائقاً على المستوى الاجتماعي يرى جيل الآباء أنه

معيب ومرفوض، وأعتقد أن أمة الإسلام مرحومة -والحمد لله- في هذا -وغيره طبعاً- حيث إن الأحكام الفقهية والآداب الإسلامية تعطينا مؤشرات واضحة في كثير من المسائل، ومن المهم أن ندرك أن كثيراً من المشاكسات مع المراهقين من أبنائنا تنتهي بعد مدة حين يشبون عن الطوق، وينعمون بالاستقرار العاطفي.

ب- بعض المربّين من آباء وأمهات لديهم ثقة زائدة في النفس، ونوع من الصرامة في المواقف، فيظهرون أمام أبنائهم وكأنهم دائماً على حق، إنهم لا يتيحون أي فرصة للمراجعة أو المحاورة، فما يقولونه واجب التنفيذ، ولا يقبل النقاش... هؤلاء المربون يثيرون في نفوس أبنائهم نوعاً من السخط المستمر، وبعض الأبناء يكوّن انطباعاً سلبياً جداً عن أبيه أو أمه، وملخّص ما يردده في نفسه عن مربيه: «هكذا عقليته»!.

نحن لا نختلف أن الكبار معهم الحق في معظم الأحيان، لكن هناك أمور كثيرة تتعلق بالصغار يحتاج القرار فيها إلى أخذ رغباتهم بعين الاعتبار، خذ مثلاً تحديد وقت النوم في المساء، إنه في الأصل شيء إيجابي، والالتزام به جيد، لكن لا بد أن تكون هناك بعض الاستثناءات، مثل: وجود حفلة معينة، أو وجود اختبار عند الولد، أو الابتهاج بقدوم عزيز من سفر، وغير ذلك... حتى لو كان الواحد منا على حق مطلق؛ فليترك مجالاً للاعتراض، وليحاول شرح موقفه، وإقناع الصغير به، حتى تظل حرارة التواصل مستمرة.

ج- إن من أكثر ما يضعف تفاعل الأطفال مع ذويهم التطرف في التأديب، والتوجيه، وإبداء الملاحظات، ومن ذلك على سبيل المثال لا الحصر:

○ العقاب البدني والإسراف في اللجوء إليه.

○ مقارنة الصغير بغيره من أبناء الأقرباء من أجل إظهار قصوره وتقصيره.

○ الصراخ والغضب السريع تجاه الأخطاء والهفوات التي تصدر من الأطفال.

○ الإفراط في التوجيه، فيبدو الأب وكأنه متفرغ لإسداء النصائح، وإصدار الأوامر والنواهي.

○ توجيه أصابع الاتهام لأحد الأبناء كلما حدثت مشكلة لا يُعرف فاعلها، وكلما كُسِر شيء لا يُعرف من كَسَره.

إن مثل هذه التصرفات من الأبوين تجعل العلاقة بينهم وبين أبنائهم علاقة خصوم ومتحاربين، وليست علاقة رحمة وود واحترام وتفاهم، ولهذا فإنك تشعر أن الكبار في واد، والصغار في وادٍ آخر.

د- هل نستطيع القول: إن أكثر ما يباعد بين الأطفال وآبائهم هو (التلفاز)؟

أعتقد أننا لو قلنا ذلك؛ لما كنا مخطئين، إن التلفاز فعلاً قد خطف معظم الأطفال من آبائهم، ومن الكتاب أيضاً حيث إن أكثر الأطفال يجلسون متسمّرين أمام شاشات الفضائيات ستة أو سبعة أضعاف الوقت الذي يجلسون فيه مع آبائهم وأمهاتهم، ولا بد أن نضيف إلى التلفاز (الإنترنت)، والألعاب الإلكترونية.

إن هذه الأشياء تشجع على العزلة الاجتماعية، وتدفع في اتجاه الترفيه الشخصي المستقل للطفل بعيداً عن أبويه، ومن هنا؛ فإن المسافة الفاصلة بين أفراد الأسرة الواحدة قد اتسعت، على الرغم من أنهم يعيشون في بيت واحد !

لا بد من تحديد مشاهدة الأطفال للتلفاز وتقليلها إلى أقصر مدة ممكنة، وقد يكون من المناسب تحديد أوقات في اليوم لا يفتح فيها التلفاز لأي سبب، وذلك حتى يجلس أفراد الأسرة مع بعضهم، وحتى ينصرفوا إلى الدراسة والمطالعة والتثقف.

▪ القاعدة الخامسة:

(تربية قائمة على الوضوح)

يمكن القول: إن (الوضوح) يشكل واحدة من أكبر فضائل الحياة؛ لأنه يتصل بالبصر والبصيرة، والعلم والنور، والوعي والفهم، أو هو محصلة جوهرية لكل ذلك.

ومن هنا؛ فإن الأسرة الناجحة هي أسرة واعية بأوضاعها، وواعية أيضاً بأهدافها، وبالوضعية التي تريد لأطفالها أن يكونوا فيها في المستقبل، وهذا الوضوح هو ثمرة عظيمة للقراءة في التربية، ولفهم روح العصر، وحقيقة الإسلام وآدابه وأخلاقه، وثمرة للاطلاع على الممارسات التربوية خارج محيط الأسرة.

نحن نؤمن بأن الوضوح التام في كل شيء ليس ممكناً، فنحن البشر رؤيتنا قاصرة، ووعينا محدود، ووضوح الأمور أمام عيوننا دائماً باهت، ولكن سنحاول على كل حال الوصول إلى أفضل وعي ممكن.

ولعلي أسلط الضوء هنا على الوضوح في أمور ثلاثة: واقع الأسرة التربوي والعام، والأسلوب الأمثل لتعاملها مع أبنائها، والقيم والأخلاق والمعاني التي تحب أن تربي أبناءها عليها.

* وضوح الوضع الحالي للأسرة:

لا شك في أن كل أسرة تمتلك بعض الملاحظات عن وضعها العام: مدى استقامتها، مدى انسجامها، مدى نجاحها... لكن المطلوب دائماً هو تحسين ما هو متوفر، وأعتقد أن أهم ما يحتاج إلى المزيد من الوضوح الأمور الآتية:

١- التفاهم بين الزوجين على الأسلوب التربوي الذي ينبغي اتباعه في تربية الأبناء، ومع أن التفاهم الكامل غير ممكن ولا مطلوب، لكن لا يصح في حال من الأحوال أن يتمكن الأطفال من شق صف الأبوين، وتحويلهما إلى شخصين متناحرين ومتباعدين؛ كما يحدث في كثير من الأحيان.

في ساعات الصفاء والهدوء يمكن تحديد بعض الأمور، والاتفاق على بعض الإجراءات تجاه بعض الظواهر السلوكية المزعجة لدى الأبناء، كما يمكن التأكيد على تقاسم الأدوار: أنا أفتح الحديث، وعليك إكمال الباقي... أنت تسأل الولد أين كان أمس، واترك الباقي علي، وهكذا...

٢- هل تنظر الأسرة -الأبوان والأبناء الكبار- إلى نفسها على أنها أسرة ملتزمة ومتدينه؟ وما درجة ذلك؟

إن أدنى درجات الصلاح يتمثل في فعل الواجبات، وترك المحرمات، فهل يمكن للأبوين أن يقولا: إنهما يحققان فعلاً الحد الأدنى من الصلاح؟

وهل هما حريصان على أن يكون أبناؤهما صالحين؟

وهل ينجلي ذلك في توجيهاتهما لهم؟ وإذا كان الجواب سلبيّاً؛ فما الذي يمكن فعله لتدارك ما يمكن تداركه؟

إن الأجوبة على هذه الأسئلة ينبغي أن تكون نظرية وعملية حتى تؤتي ثمارها على الوجه المطلوب.

٣- ينبغي أن نتأكد من شيء مهم هو الجو الأسري المتوفر لدينا، هل هو جو صحي ومريح وإيجابي؟ هل هو جو يشعر فيه الأطفال بالأمن والأمان والثقة بالنفس والانتماء؟ هل التربية في أسرتنا تقوم على التحابب والتواصل؟ وهل ينظر الأبوان إلى الأولاد على أنهم أهم مشروع في حياتهما؟ وهل يشعران بأنهما يملكان المهارات الضرورية لإدارة ذلك المشروع والنجاح فيه؟ هل يجلس الأبوان مع بعضهما للتذاكر في أحوال الأسرة، واستعراض حاجاتها التربوية؟ أو أن كل شيء يمضي على عجل، مع الشعور بأنه ليس في قضايا الأسرة ما يستحق المذاكرة والمراجعة؟ إذا كان الأمر كذلك؛ فهذا يعني أن هناك مشكلة كبيرة!.

٤- تعالوا بنا نجدد في الأعراف داخل الأسرة، وتعالوا بنا نجعل العلاقات داخلها أكثر شفافية وأكثر صراحة، وليكن ذلك هذه المرة من خلال مساهمة الأبناء.

نحن الكبار نقدم خدمة للصغار، ونرجو عليها الثواب من الله -تعالى-، وإن من حق الذين يتلقون الخدمة أن يوضحوا رأيهم فيها، في إحدى الأسر المرموقة والمتعلمة قام الوالد بكتابة استبيان ضمَّنه عدداً من الأسئلة، وطلب من أولاده ملأه، وبعد أن قاموا بملئه عقد مع أفراد أسرته العديد من اللقاءات من أجل فتح خط سير جديد للأسرة بناء على ملاحظات الصغار، وقد كان المطلوب من الطفل أن يذكر الجواب والسبب والعلة حتى يكون وضوح الإجابة عالياً، وحتى يتأكد الوالد أن الطفل فهم السؤال وأجاب عنه بجدية، وقد

كان من جملة تلك الأسئلة:

- ما مواصفات الأسرة الجيدة في نظرك؟ وما الذي ينقص أسرتنا منها؟
- ما الشيء الذي تظن أن أسرتنا تتفوق فيه على أسر أقربائنا وأصدقائنا؟
- هل تشتاق للبيت إذا خرجت منه؟
- ما الأمور التي تجعلك ترتاح حين تكون في البيت؟
- ما الذي تفخر بمساهمتك به في أسرتك؟
- هل في أسرتنا أمور تكره أن يطلع عليها الناس، وتشعر بالحرج لو سمعوا بها؟
- ما أكثر ما يثير إعجابك في أخلاق أبيك وأمك؟

يقول رب الأسرة: أستطيع أن أقول: إن حياتنا تنقسم إلى فصلين أو مرحلتين: مرحلة ما قبل الاستبيان، ومرحلة ما بعد الاستبيان، حيث إن من الصعب عليَّ أن أصف التقدم الذي حدث في أسرتنا بعد تحليل الأجوبة وتطوير علاقاتنا وأنشطتنا على أساسها! هل نجرب؟

إن الوعي بالحالة الحاضرة شرط مهم لصواب الخطوة الجديدة التي علينا أن نخطوها، إننا إن لم نعرف أين نقف؛ فسوف يكون من العسير علينا أن نحدد: (إلى أين نتجه؟).

* وضوح ما ينبغي عمله، وكيف يُعمل:

حين نهتم بتربية أبنائنا؛ فإننا سنسعى إلى تحسين الثقافة التربوية التي نحتاجها في توجيههم والتعامل معهم، تلك الثقافة هي مرشد لما ينبغي أن نعمله، ومعيار نقوّم من خلاله أساليبنا التربوية المتبعة،

وأعتقد أن نجاح كثير من الآباء والأمهات في تربية أبنائهم يعود إلى أنهم استطاعوا إيصال رسائل محددة وواضحة لأبنائهم حول ما يريدونه منهم، وحول العقوبات التي يمكن أن تنالهم عند الوقوع في الخطأ، ولعلي هنا أتحدث عن شيء من وضوح تلك الرسائل عبر الآتي:

١ - حين يريد أحدنا أن يتحدث مع أحد أولاده في موضوع من الموضوعات؛ فليخطط له، وليتخيل ردود فعل الولد، وما يمكن أن يقوله، وبالتالي كيف يرد عليه ويناقشه.. وعليه أيضًا أن يختار الوقت المناسب للمفاتحة، فالحديث المجدي والمثمر مع الأبناء يحتاج إلى استعداد يشبه استعداد أحدنا لإجراء مكالمة هاتفية مهمة، والهدف هو أن نقول ما لدينا بوضوح ودقة، وأن يقع في نفوس الأبناء في الموقع الذي نحبه.

٢- حين يقع أحد الأولاد في مشكلة مثل الشجار مع ابن الجيران، أو الرسوب في إحدى المواد، أو فقد شيء ذي قيمة عالية؛ فإن الوضوح يكون أيضاً مطلوباً من أجل تجاوز الأزمة، وتكون البداية في أن يتحدث الولد عما جرى له بكل أريحية وهدوء، وحتى نتأكد من أنه يعي ما يقول، ونتأكد من أنه واثق تماماً مما قاله، فإننا نعيد عليه ما ذكره: أنت قلت كذا وكذا، هل أنت جازم بذلك؟ هل فهمت تماماً ما نريد؟ وبعد ذلك يقوم الطفل، ويقوم الوالد، وكل مَنْ هُمْ مشاركون في الاجتماع بكتابة قائمة بالحلول المقترحة، ويجري بعد ذلك التداول فيها من أجل اختيار أفضلها.

٣- من المهم تجنب الرسائل الطويلة والغامضة.

هذا أب يقول لابنه -ابن التاسعة-: أريد منك يا بني أن تكون

عطوفاً على إخوتك، ومهذباً مع والدتك، كما أريد منك أن تكون مجتهداً في دراستك، وحين تجد بعض الوقت؛ فإني أتوقع مساعدتك في عملي في المزرعة.

هذه رسالة طويلة جداً وغامضة، فالطفل قد لا يفهم معنى: (عطوفًا)، ولا معنى: (مهذبًا)، اطلب من الطفل في المرة الواحدة شيئاً واحداً، واشرح له بإسهاب طبيعة ما تطلبه منه.

٤- حين يدخل الأولاد في طور المراهقة؛ فإن الخطاب معهم يحتاج إلى حذر، ويصبح الوضوح والتحديد أكثر أهمية؛ لأن المراهقين يعرفون كيف يعثرون على الثغرات في كلامنا حتى لا يذعنوا لما نطلبه منهم، هذا فتى في الخامسة عشرة يقول لأبيه: سأخرج اليوم مع بعض الأصدقاء، فيقول له الأب: لا بأس، لكن بشرط ألا تتأخر، فيقول الولد: إن شاء الله، ويعود الفتى الساعة الواحدة ليلاً، ويقلق عليه أهله، وحين يُسأَل عن سبب تأخره يقول: أنا لم أتأخر، ونحن الآن في إجازة الصيف، وبعض زملائي يعودون إلى بيوتهم بعد الفجر! كان المطلوب من الأب أن يقول لابنه: أسمح لك بالذهاب بشرط أن تعود إلى المنزل قبل الساعة الثامنة، وإذا تأخرت عن هذا الموعد؛ فلن أسمح لك بالذهاب مع أصدقائك خلال هذا الشهر، هل هذا واضح؟

٥- تتطلب التربية الرشيدة: أن يكون في البيت بعض القوانين التي يلتزم بها الجميع مما يتعلق بالنوم، ونظافة المنزل، والهدوء، والطعام والشراب، والخروج من المنزل، والعودة إليه، واستخدام الهاتف، وأشياء من هذا القبيل، والمطلوب في تلك القوانين شيئان:

○ أن تكون قليلة قدر الإمكان؛ حتى يحفظها الصغار.

○ أن تكون واضحة جداً حتى يعقلوها، وإن بعض الأسر تكتب تلك القوانين على لوحات جميلة، وتعلقها على جدران المنزل، وهذا شيء جيد جداً.

٦- قد يكون من المفيد كتابة بعض العقود مع الأبناء والبنات حول سلوكهم واجتهادهم وعلاقتهم ببعضهم وبالناس من حولهم، ولا بد من أن يكون العقد واضحاً جداً، وأن ينال الرضا التام من الطرفين، حتى إذا وقع الطفل في مشكلة قلنا له: العقد الذي بيننا في هذه القضية ينص على كذا وكذا، وبما أنك لم تلتزم بالاتفاق؛ فإن عليك أن تتقبل الجزاء والعقوبة، هذه أُمٌّ اتفقت مع ابنتها على أن تذاكر في مساء كل يوم ساعتين، واتفقت معها على أن وقت النوم هو الساعة العاشرة، كما اتفقت معها على أن تنظّم غرفتها قبل الذهاب إلى المدرسة، وقد كتبت الأم الاتفاق على نسختين، وبقي مع كل طرف نسخة، وكلما حدث خرق لهذا الاتفاق من قبل البنت أخرجت الأم نسخة العقد التي معها، وقالت للبنت: انظري كيف تخرقين ما اتفقنا عليه مرة بعد مرة، وانظري -أيضاً- إلى الجزاء الذي اتفقت معك عليه في حال عدم التزامك بما هو مكتوب.

٧- هناك شيء مهم نحتاج إلى الوضوح فيه، وهو أن التربية ليست عبارة عن متابعة مستمرة للصغار، وليست عبارة عن حشرهم في الزاوية الضيقة، وإملاء التعليمات عليهم... إنها أكثر من ذلك، فطاقة الأبناء على تحمل الضغوط التربوية محدودة، ولهذا؛ فإن من المهم أن نمنح الأولاد مساحة لممارسة الاجتهاد الشخصي والتعثر أحياناً،

علينا ألا نظن أن الولد لا يتعلم إلا من خلال إرشادنا، إنه يتعلم على نحو أساسي حين يخوض في التجربة، وكما قال أحد الآباء: إني أشجع ابني على القيام ببعض الرياضات التي تنطوي على شيء من المغامرة والخطورة، لكن لا أغفل عنه، وإنما أقف قريباً منه، وبيدي الضماد والمسكّن، وحين يأتينا باكياً أسعفه، وأطبع على خده قبلة من أجل تخفيف وطأة الفشل عنه.

اسأل وناقش وتابع، ولكن اترك له القرار، واترك مساحة يجرب فيها ما لديه من مواهب وإمكانات، وستجد فعلاً أنك ربيت رجلاً بمعنى الكلمة.

* ما نحب أن يكون أبناؤنا عليه:

يقولون: لا أحد يتمنى لأحدٍ أن يكون أفضل منه إلا الأب وإلا الأم فإنهما يتمنيان لأولادهما أن يكونا خيراً منهما، وذلك لأن الأولاد هم جزء من آبائهم وأمهاتهم، ولهذا فإن كل شخص يتمنى أن يكون أبناؤه في القمة في كل أمر مرغوب فيه، لكن الأمنيات وحدها لا تكفي، بل لا بد معها من أن نكون على وعي بالهيئة والوضعية التي نتمنى أن يكون أبناؤنا فيها وعليها، حتى نربيهم على الأخلاق والقيم التي تُوصِل إليها.

كل الآباء يحبون أن يكون أبناؤهم قمة، لكن الذين يعرفون كيف يوصلون أبناءهم إلى القمة قليلون! وأود على هذا الصعيد أن أشير باختصار شديد إلى الأمور الآتية:

١ - إن أهم ما نرجوه لأولادنا أن يكونوا في المستقبل رجالاً صالحين، ونساءً صالحات يلتزمون بتعاليم الإسلام نصًّا وروحاً، ويحبون الله ورسوله، ويحملون مشاعر الانتماء لهذه الأمة، وكل ذلك

من أجل نجاتهم في الآخرة، وفوزهم برضوان الله -تعالى-، وهذا يحتاج منا أن نجعل من أنفسنا قدوات لهم في الصلاح والعبادة وحب الخير، وتزداد أهمية هذا المعنى في زماننا هذا حيث تعيد العولمة إعادة ترتيب العالم بطموحاته ومبادئه ورمزياته، فإذا لم تكن عيوننا مفتوحة بشكل جيد؛ فقد نخسر أبناءنا من غير أن نشعر.

٢- أن نبعث في نفوسهم مسألة الاعتزاز بالذات وتقديرها، أو بعبارة أخرى: أن نربي في شخصياتهم معاني المروءة والشهامة والترفع عن الدنايا، والشعور بكياناتهم على أنها كيانات جديرة ومحترمة، وذات قيمة، وقادرة على الإنجاز الكبير والعطاء، وتملك الممانعة في وجه الشرور والمغريات.

إننا لا نريد منهم في الأساس أن يطلبوا احترام الناس، لكن نريد منهم أن ينظروا إلى أنفسهم على أنهم أشخاص محترمون، ويكون احترام الناس لهم نتيجة طبيعية لما يملكون من صلاح وكفاءة.

إن احترام النفس هو -بحق- جوهر الصحة العقلية، والافتقار إلى تقدير الذات هو أصل كثير من الأمراض الشخصية والاجتماعية.

احترام الذات يظهر على نحو جليّ حين يتعرض الإنسان للفشل والإحباط، وحين يواجه ضغوطات كبيرة، إنه يتجلى في صمود المرء وكبريائه ومقاومته، وهو يلقِّح صاحبه ضد الجريمة والعنف والتبعية والدونية.

أما الشعور بالضَّآلة وازدراء الذات؛ فإنه يدفع في البداية في اتجاه العزلة والسلبية والشعور بالمرارة، ثم يحفز صاحبه على الثورة ضد سلطة الآباء والأمهات، وسلطة النظام والقانون؛ ليندفع في طريق الإجرام.

إذا كنا نريد لأبنائنا أن يحترموا أنفسهم، فلنعاملهم على أنهم أشخاص محترمون فعلاً، ولندربهم على طلب معالي الأمور، والترفع عن الدنايا، وكل ما لا يليق.

٣- لدينا مجموعة من القيم الأساسية التي تشكل عماد الشخصية الممتازة، أحب استعراض أهمها عبر الحروف الصغيرة الآتية:

أ- أود أن أؤكد على أمر في غاية الأهمية، وهو أن من غير الممكن فرض المبادئ والقيم على أحد، سواء أكان صغيراً أم كبيراً.

الأخلاق والقيم يتشرَّبها الأطفال من خلال احتكاكهم بالكبار وإعجابهم بهم، وقد رأيت كثيراً من الناس الذين يفرضون أخلاقاً فاضلة على أبنائهم، ويحملونهم على سلوكيات معينة بالضغط والإكراه، ورأيت تلك الأخلاق والقيم وهي تتهاوى سريعاً لدى أبنائهم عند أول امتحان، ولهذا فإن الإقناع والاقتناع هو الأساس، والضغط يجب أن يتجلى في التذكير بالقيم الفاضلة بطرق مختلفة، ومع التذكير علينا أن نعترف أن تغلغل القيم في السلوك ليس بالأمر اليسير، وحبذا لو أننا معاشر الآباء وقفنا مواقف غير أبوية، نعترف فيها بأننا لما كنا في سنهم وقعنا في أخطاء تخالف مدلول الأخلاق، ولكن كنا نؤوب ونصحو ونندم، فهذا يخفف عنهم من وطأة الشعور بالذنب، ويقرِّب المسافة الروحية بيننا وبينهم.

ب- الصدق من أهم الأخلاق التي ينبغي أن نكون واضحين في الاهتمام بها، وأقول في البداية: إن أكاذيب الأطفال الصغار ليست -في الغالب- أكثر من مجرد أمنيات، فهم يعيشون في عالم من الخيال تتحول فيه الأشياء إلى حقيقة لمجرد اعتقادهم أنها حقيقة، ولهذا فإن الصغار لا يشوهون الحقيقة عمداً، وذلك لأن فهمهم للصدق

وإحساسهم بالفضائل الأخلاقية لم ينضج بعد.

نستطيع أن نرسخ قيمة (الصدق) في عقول الأطفال من خلال طرح الكثير من الأسئلة حول الصدق والكذب، وحول بعض المواقف التي يتجلى فيها كل منها، ومن تلك الأسئلة:

- لماذا الكذب خطأ؟
- ما الضرر في أن تقوم بالغش في أحد امتحانات المدرسة؟
- ما معنى قولهم: حبل الكذب قصير؟
- لماذا كان الصدق يهدي إلى البر؟ (البر اسم جامع لكل أنواع الخير).
- إذا جمعت نقوداً خلال سنة، وجاء من خدعك وأخذها منك، كيف يكون شعورك؟
- إذا عرض عليك شخص ما مبلغاً كبيراً من المال كي تفشي سراً كنت أقسمت أن تحتفظ به طي الكتمان -مع العلم أنه لن يضارّ أحد من إفشائه-، هل تستجيب إليه؟

حين يصبح الأولاد في سن المراهقة يختلف الأمر، ويصبح تجنب كثير من الأبناء لقول الحقيقة أمراً واضحاً جداً، فإذا رأيت قصة محبوكة ومحكمة؛ فقف موقف الشاكّ، لأن براءة الأطفال قد انتهت...

ج- خلق الشجاعة الأدبية أيضاً من الأخلاق المهمة، وهو يعني قول الحق والدفاع عنه، والصراحة في إبداء الملاحظات على ما يجري حول الطفل، وتعني الشجاعة أيضاً: مقاومة ضغوط الرفاق حين يدعونه إلى مشاركتهم في شيء خاطئ، كما تعني الشجاعة كذلك: عدم الاستسلام للصعوبات والشدائد، والاستمرار في محاولة الخلاص منها، والثقة بأن الله -تعالى- سيجعل بعد عسر يسراً.

حتى نوضح هذا الخلق العظيم للأطفال، وحتى نرسخه في نفوسهم؛ فإن علينا أن نقص عليهم شيئاً من أخبار الشجعان وحكاياتهم، وشيئاً من تجاربنا الشخصية التي نعتقد أننا وقفنا فيها مواقف شجاعة.

إذا نَقَدك الطفل؛ فأصغ إليه، وشجعه على ذلك، وإذا أخطأ في الأسلوب؛ فدلّه على الأسلوب الصحيح، أكد له أن المغامرة تحتاج إلى شجاعة، وأن حساب الأمور بدقة متناهية يدعو في النهاية إلى التقاعس وإلى الجبن.

د- عمل الخير والعطاء ومساعدة الآخرين أخلاق مهمة في زماننا هذا وفي كل زمان، نحن نريد من وراء ترسيخ هذه المعاني في نفوس الأبناء أن نحارب الكبر والأنانية والسلبية والعزلة التي صارت اليوم تشكل أدواء خلقية خطيرة تغزو الناس في كل مكان، لنشرح للأطفال أن الحياة مشاركة وعطاء، وأن خير الناس هو أنفعهم للناس وأوصلهم للرحم، وأرحمهم بالفقير.

شجع الطفل على مشاركة أبناء الضيوف والجيران في ألعابه وما لديه من حلوى، وشجعه على الانخراط في الألعاب الجماعية، ودرّبه على التبرع للفقراء...

بعض الأسر تخصص صندوقاً للإحسان والصدقة تسهم فيه كل الأسرة، وتحتفل بفتحه كل ثلاثة أشهر، وتخصص جوائز لأكثر المتبرعين، وهذا شيء رائع وجميل.

هـ- نحن نحتاج إلى الوضوح في مسألة التعامل مع المال، وفي مسألة العلاقة بين الدخل والعمل.

المال مال الله، ونحن مؤتمنون عليه، وعلينا أن نتصرف في اكتسابه

وإنفاقه وفق مرادات الله -تعالى-، المال من وجه آخر محور من محاور الحياة، وحين يفتقده الناس يواجهون مصاعب كثيرة، لكن المال لا يحل كل المشكلات، وصدق من قال: رجل بلا مال رجل فقير، وأفقر منه: رجل لا يملك سوى المال، أي: لا أمانة، ولا صدق، ولا تقوى، ولا علم... لديه.

إن رجلاً يفتقر إلى هذه المعاني هو فعلاً أفقر من أي فقير.

إن العلاقة بين كسب المال والعمل الجاد علاقة غامضة في أذهان الأطفال، ويجب أن نوضحها لهم.

شجع الطفل على الادخار، وعلى توفير مبلغ للطوارئ، وعلينا أن لا نسرف في تقديم المكافآت المالية للأطفال حين يحصلون على درجات عالية، أو يقومون بعمل ممتاز حتى لا يصبح المال رمزاً للحب والتقدير، وحتى لا يزداد تعلقهم به.

إن الأمور التي تحتاج إلى المزيد من الوضوح كثيرة، وفيما قدّمنا مقنع؛ والله المستعان في كل حال.

القاعدة السادسة:

(التربية اهتمام)

إن في إمكاننا القول: إن (الاهتمام) في أمور التربية وفي غيرها يشكل واحداً من أكبر الفضائل الإنسانية، ونحن نعرف من تجاربنا الشخصية: أن المسائل المعقدة تذلَّل وتصبح سهلة حين نهتم بها، ونعرف أن الأمور اليسيرة والسهلة تصبح صعبة وخطرة من خلال إهمالها والتواني في معالجتها، وفي اعتقادي: أن تربية الأبناء من القضايا التي تحتاج إلى درجة عالية من الاهتمام واليقظة والمتابعة، فالعالم من حولنا يتغير، وتأثير الثقافات الأجنبية في أبنائنا يزداد، وأبناؤنا أنفسهم يكبرون وينتقلون من طور إلى طور، ومن مرحلة عمرية إلى مرحلة أخرى، ولكل مرحلة معطياتها وحاجاتها ومشكلاتها، ونحن مطالبون بوعي كل ذلك، وحتى نعيه، ونحسن التعامل معه، فإننا نحتاج إلى الاهتمام، ولهذا فإننا لا نكون مبالغين إذا قلنا : إن التربية اهتمام؛ لأنه فعلاً لا تربية من غير اهتمام.

وهذه بعض الإشارات السريعة في هذه القضية المهمة:

* عالم يتغير:

إذا قلنا: إن عالمنا يتغير؛ فإننا لم نفعل شيئاً؛ لأن العالم ما فتئ يتغير،

لكن علينا أن نقول: إن التغير في عالمنا يتعرض لانفجار، حيث يخرج التغيير عن النظام الضابط له؛ ليصبح شيئاً شبيهاً بالفوضى العارمة، وإن في إمكاننا فهم ملامح التغيير الحادث الآن إذا ملكنا فضيلة الاهتمام بمتابعة التقلبات السريعة الحادثة الآن، وقراءتها من أفق ثقافة تربوية جيدة.

إن من المهم أن يدرك الآباء والأمهات أننا نعيش في ظل حضارة تقوم بعملية استبدال واسعة للكثير من القيم، إذ إنها تؤكد على الجمال والقوة والإثارة والإغراء والمتعة وإنعاش المزاج والأنانية والمكاسب الشخصية، وتحاول إحلالها في محل الفضيلة والاحتشام والتواضع والتعقل والمشاركة والعطاء...

إن لدينا جيلاً جديدًا يمكن أن نسميه: (جيل التلفاز)، جيل لا يرى على الفضائيات إلا القليل من الدعوة للمثل العليا، والأخلاق الحميدة، وحين يدخل أبناء هذا الجيل في مرحلة المراهقة يكتشفون أنهم لا يملكون إلا القليل من المعتقدات، ومن القيم التي تمكِّنهم من صياغة إطار للعيش الكريم، وللتطور الرشيد.

إن علينا أن نفتح عيوننا جيداً كي نرى التغيرات البطيئة التي تُحدِثها العولمة في بيئاتنا الثقافية، بل إن العولمة تعمل في الحقيقة على صياغة بيئات ثقافية جديدة يتراجع فيها مفهوم التواصل والتراحم والجيرة ومسرات اللقاء بالأهل والأحبة والأصدقاء، ويتقدم مفهوم المسرات الشخصية التي يحصل عليها المرء في أوقات العزلة، وخلف الأبواب المغلقة، وقد وصفت هذه الوضعية كاتبة غربية حين قالت: منازل أنيقة، وشوارع جميلة وشرفات مريحة، ولكن بلا ناس! نحن لم نبلغ هذه الدرجة من موت الروح الجماعية، لكن لا أحد يستطيع

القول: إننا نتقدم في اتجاه معاكس لهذا!

اهتمام المربي بهذا يملي عليه أن يحاول إنعاش القيم والمعتقدات الإسلامية داخل نفوس الأطفال من خلال الجو الأسري الذي تتعاون الأسرة كلها على تكوينه، ومن خلال اختيار رياض الأطفال والمدارس التي تربي الصغار على الأخلاق الإسلامية الفاضلة، وإن الغفلة عن فهم ما يجري حولنا ستعني حدوث خسائر ليس هناك أي سبيل للتعويض عنها.

* الوعي بمسار الأسرة:

إن جزءاً كبيراً من اهتمامنا ووعينا ومتابعتنا ينبغي أن ينصب على إدراك المسار الذي تمضي فيه أسرنا من خلال طرح بعض الأسئلة المهمة، ومحاولة الإجابة عليها، ومن تلك الأسئلة:

- هل لأسرتنا مسار حياتي واضح تمضي فيه، وهل هناك اتفاق بين أفراد الأسرة على معالم ذلك المسار؟
- هل ما زالت أسرتنا تمضي في هذا المسار، أو أنها صارت تخرج عنه في بعض الأحيان؟
- هل جانب التعبد والتمسك بالسنن والآداب الإسلامية يتقدم داخل الأسرة، أو يتراجع؟
- هل ما زال التفوق الدراسي للأبناء هدفاً واضحاً وحاضراً؟
- اسأل كل واحد من أفراد الأسرة: ما الشيء الذي يدعو في أسرتكم إلى الاعتزاز والافتخار؟
- هل الأسرة تزداد تماسكاً؟ وهل هناك تضامن قوي بين أفرادها؟

هذه الأسئلة -وأخرى مثلها- لا يلقيها إلا المربي المهتم والحريص.

والخطوة الثانية بعد إلقائها تتمثل في جمعها والتأمل فيها، ثم مناقشتها مع من يمكن أن يشترك في مناقشتها من الأبناء، ومحاولة الانتهاء إلى ملاحظات وأفكار يتم تجديد مسار الأسرة في ضوئها.

* كـن قـريباً:

إذا لم يعن الاهتمام بتربية الأبناء القربَ منهم، والحرص على تفهم مشاعرهم ومشكلاتهم؛ فإنه في الحقيقة لا يعني أي شيء.

مشاغل الحياة في ازدياد، وتكاليفها في تصاعد، وهذا أدى إلى أن كثيرين منَّا وجدوا المسوّغ للانشغال عن أولادهم وأزواجهم، لكن علينا ألا ننسى -أيضاً- أن المشكلات والتحديات التي صار الأولاد يواجهونها أكثر بكثير من السابق، أي في الوقت التي زادت فيه حاجات أبنائنا إلينا كثرت المشاغل التي تصرفنا عنهم!

حين يكون أولادنا صغاراً؛ فإنهم قد لا يحتاجون إلى أكثر من وجه يبتسم في وجوههم، ويد تربت على ظهورهم، لكن حين يدخلون في طور المراهقة؛ فإنهم يحتاجون إلى جلسات طويلة، وإلى عناية مركزة وطويلة ومتواصلة.

بعض الأبناء يتعرض لتشوه نفسي صامت دون أن يشعر أحد بسبب الإحباط الذي يواجهه في الدراسة، أو في إخفاقه مع أصحابه وزملائه، أو بعض تجاربه الفاشلة...

القرب من الأبناء يعني: بناء علاقة ثقة ومودة معهم، وهذه العلاقة يتم بناؤها عن طريق التحدث معهم في كل الأمور التي تعنيهم مهما كانت صغيرة وغير مهمة، وحين تقوم تلك العلاقة يبدأ الأولاد في تحديثنا عن القضايا الكبرى والمهمة التي تزعجهم، كما أنهم يبدأون في التحدث عن طموحاتهم وأحلامهم حتى يستفيدوا من خبراتنا وتجاربنا.

تدل شواهد كثيرة على أننا لا نستطيع فهم حاجة الأبناء إلى حضورنا إلى جانبهم واقترابنا منهم إلا إذا تذكرنا ألوان المعاناة، وأشكال الأسئلة التي واجهناها حين كنا مثلهم، دون أن نجد من يمد لنا يد المساعدة، لكن يبدو أننا معاشر الكبار نعاني من تراجع سريع في ا لذاكرة، فلا نتذكر الحال التي كنا فيها حين كنا صغاراً!

كثيراً ما تفسد علاقتنا مع أبنائنا بسبب سوء تصرفاتهم معنا، وخروجهم عن الآداب المرعية في التعامل مع الآباء والأمهات، لكن علينا أن نعرف أن عقول الأطفال لا تنضج نضوجاً كاملاً إلا في سنوات المراهقة المتأخرة، أو ما بعدها، وإن جزء المخ الذي يُملأ أخيراً هو الجزء الذي يقوم باتخاذ القرار، ويتحكم بالمشاعر، وهو ما يفسر احتمالات ميل سلوك المراهقين إلى العنف والتخبط، كل واحد من الأبناء يحتاج إلى جلسة خاصة مع والده بين الفينة والفينة، وكل واحدة من البنات تحتاج إلى جلسة خاصة مع والدتها بين الفينة والفينة، وفي تلك الجلسة يتم التحدث في كل شيء ببساطة وسهولة وصدق وصراحة تامة، ولعل من الأمور التي يمكن التحدث فيها الآتي:

- نظرة الابن لوضع الأسرة، وما لديها من إيجابيات وسلبيات.
- الوضع الدراسي للولد، واتجاهاته العلمية، ونظره للتخصص في المستقبل.
- تدينه والتزامه بآداب الشريعة، وصلته بالله -تعالى-، وسعادته، واطمئنانه النفسي، والشعوري.
- الأشياء التي تقلقه، وتُدْخل عليه النكد والاضطراب.
- طموحاته وآماله على صعيد النجاح الشخصي، وبناء أسرة في المستقبل.

في جلسات الصداقة والمفاتحة هذه، يُسْتَحَبّ دائماً أن تكون عفوية، وتعلوها روح السرور والطرفة والبساطة والتفاؤل والإيجابية، وأن يتحاشى المربي أن يكون فيها أي نوع من القسر والإكراه، حتى لا تفقد معناها، وتصبح عقيمة، إن علينا أن نقاوم دائماً ما يمكن أن نقع فيه دون أن نشعر من المبالغة في النصح والتحذير والتهديد وإثارة المخاوف.

بعض الآباء شُغلوا بتأمين لقمة العيش لأبنائهم، فلم يجدوا الوقت للتواصل معهم، وبعض الناس مشغولون بتثمير أموالهم، فهم في أسفار شبه دائمة، وفريق ثالث مشغول بنفسه ومتعه وأهوائه، وهناك فريق رابع ليس هنا ولا هناك إنه حاضر، غائب، موجود، وليس موجوداً، فهو بين أولاده ومع أسرته، ولكن التواصل معهم معدوم، فلا يعرف عن أولاده إلا أقل القليل! هؤلاء جميعاً كثيراً ما يفاجئون بفشل أبنائهم في الدراسة، وبانحرافهم عن الطريق السوي، ويصحون في الغالب متأخرين، وكثيراً ما يحاولون عمل شيء، لكن يجدون -مع الأسف- أن الفرصة قد فاتت، وأن أوان الرعاية والتهذيب قد مضى، وليس أمامهم سوى الاستسلام، وإن أحبوا فبكاء الأطلال!

فهل نبدأ من اليوم بأخذ العبرة، وإعداد العدة لبناء أسرة أفضل، واهتمام أكبر بفلذات الأكباد؟ هذا ما نرجوه.

■ القاعدة السابعة:

(تربية تقوم على التوازن)

وصف الله -عز وجل- هذه الأمة بأنها أمة وسط كما نجد ذلك في قوله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: ١٤٣].

قال المفسرون: معنى (وسطاً)؛ أي: دون الأنبياء، وفوق الأمم، وقالوا: إن أحمد الأشياء أوسطها، وإنما كان الوسط محموداً؛ لأنه مجانب للغلو والتقصير، وروي عن علي -رضي الله عنه- أنه قال: «عليكم بالنمط الأوسط، فإليه ينزل العالي، ويرتفع النازل» [«تفسير القرطبي» (٢/ ١٥٣-١٥٤)].

نحن نعرف في مجال الأخلاق والعادات أن الفضيلة وسط بين رذيلتين، أي أن الفضيلة لها طرفان، وكل طرف متصل برذيلة من الرذائل، فالكرم إن زاد عن حده انتهى إلى السرف والتبذير والسفه، وإن نقص عن حده انتهى إلى البخل والشح، والشجاعة إن زادت عن حدها انتهت إلى التهور والمجازفة، وإن نقصت عن حدها انتهت إلى الجبن، وهكذا...

وسوف نرى أن التربية تحتاج فعلاً إلى التوازن والاعتدال والتوسط، فالمربي الناجح والموفّق يمارس التربية، وقد فتح عيناً على ما يريده من الطفل في كل المجالات وكافة المستويات، ويفتح عيناً أخرى على طبيعة الطفل وطاقاته وحاجاته، فهو يريد له أن يكون خير الناس وأفضلهم، ويحرص مع هذا على أن لا يكلفه ما لا يطيق، وعلى أن لا ينفّره ويزعجه.

بقي أن نقول: إن علينا حتى نربي التربية المتوازنة والمثمرة أن نعرف ما نريده من الطفل على وجه التحديد، وأن نعرف كيف نحافظ على شخصيته وخصائصه، وأن نعرف كيف يمكننا أن نجعله يجمع بين ما فيه مصلحته ومستقبله، وبين ما فيه راحته واستقراره في حاضره، وليس هذا بالأمر اليسير، فهو يحتاج إلى معرفة وثقافة جيدة، ويحتاج إلى أن نضبط أعصابنا في بعض الأحيان، ونضغط على أنفسنا، كما يحتاج إلى أن نظهر -أحياناً- بمظهر الجاهل أو الأبله الذي لا يرى ما يجب أن يراه، أو لا يفهم ما الذي يجب أن يفهمه، ومهما عرفنا واطلعنا ومارسنا في حقل التربية؛ فلن نستطيع وضع السكين على المفصل، والادعاء بأننا فعلاً متوازنون في تربيتنا، والسبب يكمن في افتقارنا للدقة في فهم حاجات الطفل، وما نريده منه، ومن هنا فسيكون من المألوف جداً، أن يظن أحدنا أنه متوازن في تربيته لأبنائه، وينظر إليه بعض الناس على أنه متشدد ومتعسف، وينظر إليه أناس آخرون على أنه مفرّط ومتساهل، إذن نحن هنا سنتحدث عن مسألة التوازن في التربية من أجل الاقتراب منها، وليس من أجل حسمها، أو قول الكلمة الفاصلة فيها.

* صور للتوازن في التربية:

١- إن الله -عز وجل- قضى بأن تكمن نواة الأسرة في رجل وامرأة، وقضى أن تكون لهما طبيعتان مختلفتان، وأمرهما بالتعاون على الخير، وبالتفاهم والتحمل، والتحابب والتجاوز عن الأخطاء، وذلك حتى يتمكنا من خلال تحالفهما القوي والمستمر من تربية أولادهما التربية الجيدة والمتوازنة، وهما يحققان التوازن في تربية الأبناء من خلال:

- أب حازم، إذا قال كلمة؛ فإنه ينفذها، وأم تكون شفيعة للولد، وتطلب من الأب أن يعفو عن الغلط في المرة الأولى.
- أُمٌّ يُسرُّ لها الأبناء بكل شيء، وتتحدث معهم في تفاصيل التفاصيل، وأب يتحدث في الأمور الأساسية، ويُبدي الاستعداد للمساعدة في أي شيء.
- أُمٌّ تنظر إلى بعيد، وتحذر من عواقب بعض الأمور على المدى الطويل، وأب يميل إلى أن يكون عملياً وواقعياً، وأكثر تفاؤلاً.
- أب يولي اهتماماً أكثر للذكور؛ لأنه أعرف بمشكلاتهم، وأم تهتم أكثر بالبنات؛ لأنهن يشعرن بقربها إليهن أكثر.
- أم تغلب على نظرتها ومواقفها في تربية الأبناء العاطفةُ والمشاعر الجياشة، وأب ينظر إلى الأمور نظرة عقلانية أكثر.

إذن الأم والأب يقومان بإيجاد التكامل في تربية الأبناء من خلال اختلاف طبيعتهما وأدوارهما، وفي التكامل توازن واعتدال، لكن هذا لا يتم دائماً على نحو تلقائي، ولا بد من التفاهم والتنسيق، بل إن عدم التنسيق قد يؤدي إلى الصدام والنزاع على ما هو مشاهد في كثير من الأسر.

٢- نحن نحتاج إلى التوازن في اتخاذ قراراتنا داخل الأسرة، حيث إن من المشاهد بكثرة مماطلة بعض الآباء والأمهات في اتخاذ قرارات كثيرة، يلحّ عليها الأبناء: أبناء يطالبون أبويهم بزيارة عمتهم في مدينة أخرى، أبناء يطالبون أباهم بتخصيص مصروف شهري لكل واحد منهم، ابن يطالب أباه بالانتقال من مدرسته إلى مدرسة أفضل، بنت تطالب أباها بشراء حاسب آلي.. والموقف دائماً هو التأجيل والقول: إن شاء الله سيكون هذا قريباً، وتمضي شهور وشهور، ولا شيء يحدث.

في المقابل نجد آباء عطوفين مشفقين، لا يكاد الولد يطلب شيئاً حتى يسارعوا إلى تلبيته، وهم يعدون ذلك من كرمهم ومروءتهم ومن اهتمامهم بأبنائهم، لكن كثيراً ما يكتشفون بعد مدة أنهم تسرعوا في ذلك، وفتحوا شهية الأبناء على مزيد من الطلبات..

الموقف المتوازن لا يتجسد في الاستعجال، ولا في التسويف، ولكن في دراسة الطلب على نحو جاد على انفراد، أو مع الأسرة، ولا بأس في أن يكون الجواب: بعد شهر من الآن ستسمعون ما الذي سنفعله.

المهم أن لا يشعر الأولاد بإهمال أبويهم لهم ولطلباتهم، والمهم -أيضاً- هو الوفاء بالوعد الذي سمعوه وأخذوه.

لدينا إفراط وتفريط في مسألة انضباط الأولاد وممارستهم لحرياتهم، ويبدو لي أن كثيراً من الأسر انتقلت من طرف إلى طرف آخر، لو عدنا إلى الوراء أربعين سنة؛ لوجدنا أن الأبناء كانوا يجلسون على موائد الطعام في منتهى الأدب، وحين يريد الواحد منهم مد يده إلى الطعام، أو التحدث في أمر من الأمور؛ فإنه يحسب حسابات

كثيرة خشية الوقوع في خطأ، فيسمع اللوم والتقريع، وهو لا يدري متى يمكن أن يُضرب على يده بسبب حركة غير صحيحة قام بها، وكثير من الأبناء لا يجرؤون على طلب شيء من آبائهم، فيطلبونه من أمهاتهم، أو من إخوتهم الكبار، حتى يطلبوه لهم من الآباء...

اليوم اختلف كثير من ذلك، وبعض الآباء انحرفوا اليوم (١٨٠درجة)، حيث أصبحوا يمنحون أبناءهم كامل الحرية في الدخول والخروج، ويمنحونهم الكثير من المال، حتى قال أحدهم: إن الجيل الجديد هو الجيل الذي بات يحصل على كل شيء، دون أن يشعر أنه مسؤول عن أي شيء! وأود أن أوضح هنا المعاني الآتية:

أ- إننا ضد التسلط على الأبناء، وضد تحويلهم إلى دمى وإمَّعات، ومجرد أشخاص تابعين، فهذا يُلحق بهم أفدح الأضرار النفسية، ولا يساعد على صلاحهم، بل يساعد على انحرافهم.

ب- مهمتنا الأساسية في تربية الأبناء ليست ترفيههم، وإدخال أكبر قدر من السرور عليهم، وغمرهم بأكبر قدر من الأشياء، وإنما إعدادهم للحياة، وإعدادهم للتعامل الجيد مع الناس ومع التحديات، وإعدادهم قبل هذا وذاك لأن يكونوا من صالحي عباد الله -تعالى-، هذه مهمتنا الأساسية، وبالمناسبة؛ فإن علينا أن نتذكر قاعدة مهمة، هي أن الشيء إذا تجاوز حده انقلب إلى ضده، وهذا ما يثبته عدد من البحوث والدراسات، حيث تبين أن الأطفال الذين يتمتعون بقدر كبير من حرية التصرف يكونون غير سعداء؛ لأنهم لا يقدّرون، ولا يعرفون قيمة أي شيء، لا بد من أن يمر الأبناء ببعض الأوقات العصيبة حتى يعرفوا معنى الشدة، ومن خلال تعرفهم على الشدائد يتذوقون معنى النعمة التي هم فيها، ويجدون السبيل لشكرها.

في إحدى الجامعات قالت المدرّسة لطالباتها: لتتحدث كل واحدة منكن عن طموحاتها وأحلامها، فقامت واحدة من بنات الأسر المترفة والمرفهة، وقالت: ليس عندي أي طموحات، فكل ما يمكن للمرء أن يتمناه موجود في بيتنا، قالت ذلك، وقد شمخت بأنفها وبنبرة مشحونة بالكبر والاستعلاء!

إن هذا الصنف من الأبناء يواجه في العادة الكثير من المشكلات حين يستقل عن أهله؛ لأنه أخذ صورة مشوهة عن الحياة! نحن في حاجة إلى الحفاظ على تماسك الأسرة من خلال المحافظة على التقاليد المشروعة والمرغوبة، مثل: تقبيل يد الوالدين، واحترام الأخ الأكبر، واستئذان الصغير والكبير الأبوين قبل مغادرة المنزل، واجتماع الأسرة على مائدة الطعام مرة واحدة على الأقل في اليوم، وما شابه ذلك، وإنما أقول هذا الكلام لأن بعض الأسر المسلمة قد فقدت كل هذا مع الأسف الشديد، وسادها نوع من الجفاء والقطيعة!

ج- إن الأبناء حين يكونون صغاراً؛ فإنهم يحتاجون إلى توجيه دائم في كل شيء، ويحتاجون إلى الشعور بأن في البيت سلطة ضابطة وحازمة، تعرف ما يصلحهم، وتحملهم عليه حملاً، وكلما كبر الأولاد وتحسن وعيهم، فإننا نخفف سيطرتنا عليهم تدريجياً، ونعطيهم مساحة أوسع للحركة والاختيار، فإذا دخلوا في مرحلة المراهقة: خفَّفنا سلطتنا وسيطرتنا أكثر فأكثر، فإذا دخلوا الجامعة: صرنا نعاملهم في معظم الأحيان على أنهم أصدقاء أعزاء، ويتسع دور المرشد الناصح الذي يقول ما يعتقد، ويترك للأبناء مسألة اتخاذ القرار.

٤- لدينا شيء مهم يتجلى فيه التوازن، وهو يتعلق بالدمج بين طبيعة الطفل وإمكاناته وذوقه ومشاعره، أو قل: (هويته) من جهة،

وبين متطلبات المجتمع والعصر الذي نعيش فيه من جهة أخرى.

وأقول في البداية: إن جزءاً مهمّاً من الجهد التربوي ينصبُّ على تأهيل الطفل؛ ليكون كائناً اجتماعياً يتشرب أعراف المجتمع وتقاليده، وجزءاً آخر ينصب على تأهيله لكسب رزقه بكرامة وجدارة، وهذا يعني أننا سنحمل الطفل على أشياء كثيرة مما يكره، ونزيّن له أموراً كثيرة لا يراها حسنة، أو لا تنسجم مع مزاجه وحسّه، ونحن مضطرون إلى هذا اضطراراً، لكن الضرورة تقدر بقدرها، وهذه بعض الملاحظات في هذا الشأن.

أ- علينا أن ننظر إلى الاختلاف بيننا وبين أبنائنا على أنه هو الأصل، وعلينا ألا نقع في خطأ طلب التطابق، والذي يشكِّل ما يشبه الوسوسة للعقول الضعيفة.

ب- لنتخذ من حرية الطفل أساساً وننظر إلى تدخلنا في شؤونه على أنه خلاف الأصل، ولهذا فإننا حين نفرض عليه شيئاً، أو نمنعه من شيء، نحتاج إلى أن نكون على وعي بضرر ما نمنعه، وأهمية ما نفرضه، وإذا فرضنا عليه شيئاً نترك له مساحة للخيار، فحين نقول للصبي أو البنت: إن اللباس ينبغي أن يكون ساتراً لكذا وكذا، فإننا لا نتدخل بعد ذلك في الألوان وطراز الثوب؛ أي: لا نتدخل فيما هو في دائرة المباح، ولو خالف ذوقنا، وإذا قلنا للطفل: أنت ممنوع من شرب المشروبات الغازية، تركنا له الخيار في شرب غيرها، ولو كان ما اختاره أقل فائدة من غيره، وهكذا...

ج- أحياناً يكون الطفل صاحب مزاج شاذ أو صعب، كأن يكون نباتياً لا يحب أكل اللحوم، أو تكون سيطرته على أعصابه ضعيفة، فيغضب بسرعة، أو يكون ملولاً، أو محباً للعزلة، أو للون معين..

في هذه الحالة يكون علينا مراعاة طبيعته قدر الإمكان، إلى جانب مطالبته بالحد الأدنى من التكيف، كأن يأكل بعض مشتقات الحيوان، مثل: اللبن والجبن، وأن يدرب نفسه على كظم غيظه، وأن يحمل نفسه على حضور بعض الاجتماعات، وزيارة بعض الأقرباء في بعض المناسبات... أي تكون لنا عين على طبيعة الطفل، وعين أخرى على ما ينبغي أن يكون عليه.

د- من جملة أشكال التوازن في التعامل مع الطفل: ملاحظة ميوله الدراسية، ومحاولة تهيئة الفرصة له كي يدرس التخصص الذي يحبه، ويستمتع بالقراءة فيه، ومن الشائع جداً أن يحبَّ الفتيان والفتيات متابعة الدراسة في تخصص من التخصصات، ويكون للأهل هوى في تخصص آخر، ومن ثم فإنه ينشأ صراع بين الطرفين، حدثني أحد الأصدقاء -وهو أستاذ جامعي لامع اليوم- أنه حين كان في الثانوية كان يحب مادة (الفيزياء) حباً شديداً، وكان له فيها تميز واضح على جميع أقرانه، وكان يود أن يصبح فيزيائياً مرموقاً جداً، لكن أهله أصروا على أن يدرس الطب، وقد رضخ لمرادهم، وتخرج في كلية الطب، وتخصص ونبغ، لكن ظلت في النفس حسرة على الفيزياء، وشيء من الضيق ممن حرمه من دراستها!

لا بأس أن نوضح للأبناء التخصصات المطلوبة لسوق العمل، وأن نوضح لهم -أيضاً- التخصصات المتوفرة داخل البلاد، والتخصصات التي في إمكاننا الإنفاق عليه حين ينتسب إليها، لكن علينا بعد كل هذا أن نتذكر أنه هو وحده الذي سيدرس ويتعب ويعمل لا نحن، كما أن علينا أن نتذكر -أيضاً- أن المهم في كثير من الأحيان ليس نوعية التخصص الذي يدرسه الإنسان، وإنما موقعه

في ذلك التخصص، فالمتفوق جداً جداً في تخصص ليس عليه إقبال، وفرص العمل أمام خريجيه قليلة، كثيراً ما يكون أفضل من متخصص عادي في تخصص ممتاز، إن المرء لن يجد الحافز لبذل الجهد في تخصص أُكره عليه إكراهاً، ولن يبدع في تخصص لا يحبه، وعلينا في إطار هذه المعاني أن نحدد موقفنا من التوجه الدراسي لأبنائنا.

هناك أمور كثيرة نحتاج فيها إلى التوازن والاعتدال، مثل:

- المتابعة الشديدة لسلوك الأطفال، وغض الطرف عن أخطائهم.
- الجدية والمزاح في الحديث معهم.
- الثقة، وحسن الظن، والتعامل معهم على أنهم غير راشدين.
- مديحهم، والثناء عليهم، وتنبيههم إلى عيوبهم وأخطائهم.
- الإنفاق عليهم بسخاء، والاقتصاد، والتدبير.
- تدليلهم، وتحمل كل الأعباء عنهم، وتكليفهم في بعض الأعمال، وإسناد المسؤوليات إليهم.

في هذه الأمور وما شابهها نحتاج إلى التوازن، ويمكن الحصول على المعرفة بنصابه وحدوده من خلال القراءة والمطالعة، وتفهم الأعراف السائدة.

التوازن كثيراً ما يختل (أي يفقد توازنه)، ومن ثم؛ فإن علينا التوصل إلى توازن جديد في كل ما ذكرناه؛ والله -تعالى- المستعان في كل حين.

■ القاعدة الثامنة:

(التربية تعاطف)

ذكرت في قاعدة سابقة: أن التربية تفاعل؛ أي أخذ وعطاء، وتأثير وتأثر، وتفهيم وتفهم، وشد وجذب... وحتى يحدث كل ذلك؛ فإنه يحتاج إلى مادة (كيميائية) تكون مسؤولة عن توفير القابلية الروحية والنفسية لدى الآباء ولدى الأبناء، وهذه المادة هي التعاطف، والحب، والتشجيع، والمكافأة، والاهتمام، والحنو، والارتباط الروحي، والقلق على مستقبل الأسرة عامة، والصغار خاصة، ولا يخفى أن موقف الآباء والأمهات من الأولاد هو موقف الرحمة والشفقة، لا شك في ذلك، لكن لديهم مواقف؛أخرى تبدو للصغار مجافية للمودة الخالصة، وذلك أثناء التأديب والأمر والنهي والحرمان من بعض المرفّهات، والتحذير من مصاحبة بعض الفتيان، وما شابه ذلك... ونحن نحتاج إلى نقطة تعادل، وإن شئت أن تقول: نحتاج إلى شيء نستعيد من خلاله دفء العلاقة مع الأبناء، ونرسخ من خلاله في نفوسهم مفهوماً مهماً: هو أن جميع ما نقوم به أثناء تربيتهم يصب بصورة من الصور في مصلحتهم، وهذا الشيء لن يكون سوى العطف والتعاطف، والتشجيع والاهتمام، والرحمة والشفقة.

وهذه بعض الصور والحالات التي تتجلى فيها هذه المعاني وذلك عبر الحروف الصغيرة الآتية:

* المشاركة في المشاعر:

كلما كانت سن الطفل أصغر كانت الأشياء التي يخاف منها أكثر، وذلك لأن العقل البشري لا يمتلك (خانة) للأشياء الخطرة والمخيفة، وأخرى للأشياء الآمنة، ومن هنا؛ فإن تعاطف الآباء مع أولادهم يعدّ مورداً مهماً لشعورهم بالأمان والاطمئنان، وتأتي مشاركة الأطفال في مشاعرهم في قمة أشكال التعاطف، وتتطلب المشاركة في العواطف الاهتمام بمشاعر الأبناء وأحاسيسهم ومحاولة معرفتها أولاً، فالطفل يفرح لأشياء كثيرة لا تلفت انتباه الكبار ولا تُطربهم، كما أنه يغضب وينفعل وينزعج لأشياء -أيضاً- كثيرة، لا يرى الكبار فيها ما يستحق الانزعاج، وهنا يأتي دور المشاركة في المشاعر.

طفل يفقد لعبة رخيصة الثمن، فيبكي بكاءً مُرّاً لأسباب لا تكون دائماً واضحة، فهو قد يبكي لظنه أنه سيعاقب على تضييعها، وقد يبكي لظنه أنها غالية الثمن، ومن ثم؛ فإنه أضاع شيئاً نفيساً، وقد يبكي لظنه أنه لن يُعوَّض عنها... ولهذا فإن المطلوب من الآباء محاولة فهم حقيقة المشاعر التي تتحرك في نفس الطفل، والتجاوب معها، ومراعاتها بقطع النظر عن نظرتهم لمنطقية تلك المشاعر وواقعيتها، هذا طفل عاد من المدرسة وهو يحمل سجل درجاته الذي لا يدعو إلى الافتخار، إن الولد قد نجح بصعوبة، وهو يشعر بالكثير من خيبة الأمل؛ لأنه كان طيلة مدة الاختبارات يخبر أهله بأن اختباراته ممتازة، وسيكون من الثلاثة الأوائل، في وضعية كهذه لن يكون من المفيد توبيخ الطفل والإعراض عنه وتركه يعايش أحزانه، بل علينا

أن نتفهم شعوره بالعناء والإحباط، ونحاول تخفيف ذلك الشعور: نحن ندرك أنك قد بذلت جهدك، وأن الامتحان كان أصعب مما توقعت، ولا يجب أن تفكر كثيراً في هذا الأمر ، وفي الامتحان القادم ستكون -إن شاء الله تعالى- أفضل.. إن مشاركة الطفل في مشاعره، والتعاطف معه من خلال إظهار الفرحة لفرحه، وإظهار الحزن لحزنه، سوف تشجعه على أن يفضي بمشاعره إلينا مما يزيد في بصيرتنا، ويحسّن في ممارستنا التربوية، ونحن جميعاً نسمع من الفتيان والفتيات الكثير من الشكوى من نقص تعاطف الأهل معهم، ومن عدم اهتمامهم بمشاعرهم، ومع أن المراهقين ميالون للمبالغة، إلا أن شكواهم ليست من غير أساس، وهي جديرة بالأخذ بعين الاعتبار.

* نعم... ولكن:

يتطلب (التعاطف) من المربي الإكثار من كلمة (نعم)، وجعلها هي الأساس في الإجابة على طلبات الطفل، والحقيقة أن المسألة تحتاج إلى نوع من (الإخراج)، إذ إننا لا نستطيع الموافقة على كل طلبات الأطفال، وفي الوقت نفسه لا نريد أن نترك لديهم انطباعاً بأننا غير مستعدين لإسعادهم وتحقيق أمنياتهم، ويكمن الحل أن نقول في معظم الأحيان: «نعم..، ولكن ليس الآن»، «نعم..، ولكن عندما تكبر»، «نعم..، ولكن بشرط أن تحفظ جزءاً من القرآن»، «نعم..، ولكن حين تدخر ما يكفي من المال».

في بعض الأحيان نقول: (نعم)، ونجد حاجة إلى الإرشاد والتوجيه، وفي بعض الأحيان نسارع إلى مساندة الطفل وتشجيعه على الإقدام فيما يطلب المساعدة فيه، المهم دائماً هو شعور الطفل أننا مدركون لمشاعره وأولوياته، ومستعدون لفعل شيء من أجله.

* التعاطف موقف وسلوك:

لا شك في أن الأطفال سيظلون في حاجة لسماع الكلمات العذبة والرقيقة والحانية، لكن الكلام وحده لا يستطيع بمفرده الاستمرار في توليد الرضا والأفكار الإيجابية لدى الأطفال، بل لا بد من شيء عملي وملموس، ومن هنا فإنه يمكن القول: إن التعاطف في حاجة إلى أن يتجسد في سلوكنا وتعاملنا مع أبنائنا، التعاطف مشاعر جميلة يولّدها الفعل، ويمنحها المصداقية والرسوخ، ولك أن تلمس هذا في قول الله -عز وجل-: ﴿ وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [فصلت: ٣٤-٣٥].

وهذه بعض الأمثلة العملية التي يتجسد فيها التعاطف:

١- التجاوب مع الطُّرف التي يلقيها الأبناء والضحك لضحكهم، والتفاعل معهم وهم يسردون ذكرياتهم الجميلة في البيت القديم الذي كانت تسكنه الأسرة، وذكريات أبناء جيرانهم الطيبين، والوثوق بالأخبار التي يرويها الصغار ما لم يظهر خلاف ذلك... إن كل هذا يعزز التعاطف مع الصغار على الصعيد الاجتماعي، ويولد لديهم حالة جيدة من الطمأنينة والارتياح.

٢- يتجلى التعاطف بين الأبناء والآباء كذلك في أمور قد تكون أقرب إلى الجانب العقلي والفكري والثقافي، وذلك من خلال الاستماع إلى آراء الأبناء وأفكارهم ومقترحاتهم، ورؤاهم المستقبلية، والقيام بمناقشتها معهم، وهذا ليس بالأمر اليسير؛ لأن اعتقاد كثير من الآباء أن أبناءهم يفتقرون إلى النضج والرأي السديد يجعلهم يشعرون بأن الاستماع إلى أفكار أبنائهم... هو نوع من العبث وتضييع الوقت،

والأولى من ذلك: القيام بتقديم الخبرة للأبناء، أو انصرافهم لتعلم شيء ينفعهم... وهذه النظرة صحيحة إذا فصلنا الجانب الفكري عن الجانب العاطفي، لكن إذا نظرنا إلى الطفل على أنه كيان واحد لا يقبل التجزئة، فإن الأمر يختلف وذلك لأن استماعنا لأفكار أبنائنا ومقترحاتهم يعني نوعاً من التنازل منَّا في نظرهم، ويعني أننا نهتم بكل شؤونهم، وهذا يزيد في تماسك الأسرة، ويقوّي انتماء الطفل إليها؛ وهذا طبعاً غير الفوائد الجليلة التي يحصل عليها الصغار من خلال حوارهم مع الكبار.

٣- هناك بُعد آخر يتجلَّى فيه التعاطف، وهو البعد الروحي والتعبدي، والحقيقة: أن هذا البعد ذو أهمية كبرى؛ لأنه يمس جوهر التربية، وجوهر الحياة الأسرية، كم هو جميل ذلك المنظر الذي كثيراً ما نراه، حيث يكون الأب ممسكاً بيد ولده وهو متجه إلى المسجد من أجل أداء الصلاة، وكم هو جميل منظر تحلق أفراد الأسرة حول الأب وهم يتلون أمامه شيئاً من القرآن حتى يصحح لهم قراءتهم، وكم هو جميل منظر الأسرة وهي تنشد مع بعضها بعضاً الأناشيد الجميلة وتدعو الله -تعالى- وتسأله من فضله، وكم هو جميل منظرها وهي تستمع إلى تلخيص كتاب أعده أحد الأبناء الناضجين... إن هذه الأنشطة حين تتم برغبة تامة من الأبناء تولّد لديهم الشعور بالامتنان لآبائهم وأمهاتهم الذين أتاحوا لهم المشاركة فيها، حيث صبروا على أخطائهم، وقاموا بتدريبهم وإسعادهم في آن واحد.

* المكافأة والتشجيع:

حين نشجع طفلاً على الإقدام على عمل يحبه؛ فإنه ينظر إلى تشجيعنا على أنه تعاطف معه؛ لأننا ساعدناه على تحقيق أمنية من أمانيه، ثم إن التشجيع على عمل من الأعمال يتضمن الاعتراف على نحو خفي بكفاءة الابن واقتداره على النجاح في العمل الذي شجعناه عليه، وفي هذا مؤازرة كبيرة له.

والحقيقة: أن للتشجيع دوراً فاعلاً ومؤثراً في تمتع الأمم بعدد وافر من الرجال العظماء، ولهذا؛ فإن التشجيع يشكل مقياساً من مقاييس التحضر، فالمجتمعات كلما تحضّرت أكثر، قدّرت المواهب أكثر، وشجعت أصحابها وقدمت لهم الدعم المادي والمعنوي، والعكس صحيح؛ فالأمم المتخلّفة لا يثير دهشتها شيء، ولا ترى أسرار العظمة في أي شيء عظيم!

وهذه بعض الملاحظات في مسألة التشجيع والمكافأة، ودورهما في توليد التعاطف، ودفع الأبناء في دروب الفلاح والنجاح:

أ- تدل الدراسات والتجارب على أن المكافأة التي نقدمها للطفل ينبغي أن تكون عقب قيامه بالعمل الممدوح مباشرة؛ لأن الطفل يربط في ذهنه آنذاك بين الفعل ومكافأته على نحو سهل، وهذا يؤدي إلى تحفيزه على تكرار العمل حتى يصبح جزءاً من خلقه وسلوكه، ثم إن تأخير المكافأة يرسل للطفل رسالة خاطئة، حيث يمكن له أن يظن أن العمل الجيد الذي قام به غير مهم في نظر أبويه، وتكون الحقيقة غير ذلك، ومن الواضح أن الناس جميعاً صغاراً وكباراً مفطورون على التشوق إلى قطف ثمار أعمالهم، ومن هنا ورد توجيهه ﷺ بالنسبة إلى العمال، حيث قال: «أعطوا الأجير أجره قبل أن يجف عرقه».

[«صحيح الجامع الصغير» (١/ ٢٤٠)].

ب- تشير بحوث وإحصاءات عديدة إلى أن المكافآت المعنوية أعظم تأثيراً في نفس الطفل من المكافآت المادية، وذلك على ما يبدو؛ لأن المكافآت المعنوية أقدر على التعبير عن الرضا والسعادة من المكافآت المادية، وهذا لا يقتصر على الصغار، بل هو شبه عام، ثم إن المكافآت المعنوية مجانية، ولهذا فإننا نستطيع أن نكثر منها، وبهذا ينال الطفل من التشجيع والتحفيز ودلالات رضا الأبوين عليه الكثير الكثير.

المكافآت المعنوية تكون في الابتسامة والتقبيل والمعانقة والربت على الكتف، ومسح الرأس كما تكون في إيحاءات الوجه المعبرة عن الاستحسان والسرور بما يفعل الطفل بالإضافة إلى الاهتمام والإصغاء والثناء والمداعبة.

أما المكافآت المادية؛ فهي تتمثل في إعطاء النقود، وقطع الحلوى، واللعب بالكرة مع أبناء الحي، وزيارة بعض أصدقاء الطفل، والسهر إلى ما بعد الموعد المحدد من أجل مشاهدة شيء، أو اللهو بشيء، أو مسامرة أحد أبناء الضيوف، والقيام برحلة ترفيهية، وما شابه ذلك... وقد قال أحد التربويين: امنح أبناءك الكثير من الحب، والقليل من المال، وذلك لأن حاجتهم إلى الحب كبيرة، وهم يعرفون كيف يدبرون أمرهم مع القليل من المال، كثير من الناس -ولا سيما الموسرين- يفعلون العكس تماماً، حيث يُغدقون المال على الصغار، لكن لا يمنحونهم أي شكل من أشكال التعاطف والحنان!

ج- يمكن استخدام المكافأة المعنوية والمادية في محاولة إيقاف بعض السلوكيات غير المرغوبة، هذا طفل يتأخر في كتابة واجباته، وأحياناً

لا يكملها، فقالت له أمه: إذا انتهيت من واجباتك قبل الساعة الثامنة كل يوم زدت لك في مصروفك اليومي كذا وكذا، وهذا طفل يضرب أخاه الصغير، فقالت له أمه: إذا كففت عن ذلك أخذتك إلى مدينة الألعاب.. وهكذا، المهم دائماً أن نحدد السلوك الخاطئ بدقة، وأن نلتزم بالمكافأة التي وعدنا بتقديمها.

د- في بعض الأحيان يشترط الطفل الحصول على مكافأة كي يقوم ببعض الأعمال التي نطلبها منه، وذلك مثل أن يقول: أُحضر كذا من بيت خالتي بشرط أن تعطوني كذا، وآتي في الوقت المحدد بشرط أن أذهب في اليوم التالي إلى صديقي فلان، وأنظّم غرفتي بشرط أن ينظّم أخي غرفته وهكذا... في هذه الحالة لا يكون من الصواب تقديم أي مكافأة للطفل، بل عليه أن يُنجز مهامه دون أي مقابل، وإلا فإن شعوره بالمسؤولية سوف يضعف، كما أن المكافأة تصبح واجباً على الأبوين، ويصير الطفل في موقف المحاسب لهما، وهذا كله غير جيد.

هـ- من المهم كذلك أن لا نستخدم المكافأة في تعزيز السلوك الخاطئ لدى الطفل من حيث لا نشعر، هذا طفل يبلغ الرابعة من عمره، ويصر على أن ينام مع أبويه في غرفتهما، فأعطته والدته قطعة من الحلوى كي ينام وحده، إن هذا التصرف من الأم يجعل الطفل يربط بين الإصرار على النوم مع والديه، وبين الحصول على الحلوى ولهذا؛ فإنه سيحاول مرات ومرات الإصرار على النوم معهما حتى يحصل على الحلوى.

إن التعاطف والاهتمام والتشجيع وتقديم المكافآت المختلفة من الأمور التي لا يبالي بها كثير من الناس بسبب عدم إدراكهم لأهميتها مع أنها مهمة للغاية على صعيد تماسك الأسرة، وبناء العلاقة الروحية بين الكبار والصغار.

القاعدة التاسعة:

(تفهّم أسباب مشكلاتهم)

الطفل ذلك المخلوق الضعيف، والعاجز عن فهم نفسه وفهم مشكلاته، وما عليه أن يفعل، وهو يأمل من أبويه دائماً أن يساعداه على تجاوز مرحلة الطفولة بأمان، وهما يعملان على ذلك بجد وإخلاص وتضحية، لكن النية الصادقة لا تكفي بمفردها للتعامل مع المشكلات، بل لا بد من تفهم طبيعة مشكلات الأبناء، وتفهم أسبابها وجذورها حتى تكون هناك إمكانية لمعالجتها.

ونحن نلاحظ في هذا السياق: أن كثيرًا من الآباء والأمهات يعتقدون أن أبناءهم يجب أن يكونوا عبارة عن نسخ مكررة، فإذا كان الكبير -مثلاً- سوياً وممتازاً؛ فإنهم يستنكرون أي مشكلة قد يعاني منها أي واحد من إخوته، وهذه النظرة ليست صحيحة إطلاقاً؛ فالأشقاء والشقيقات عبارة عن مخطوطات فريدة، ولكل واحد منهم سماته وخصائصه الشخصية ولهذا؛ فإن التفاوت -وليس التماثل- هو الأصل في حياتهم. وبعض الآباء لا ينظرون بعين الاهتمام إلى معاناة أبنائهم؛ لأنهم يعتقدون أن مشكلات الأبناء تنتهي تلقائياً حين يكبرون، وهذا صحيح فعلاً بالنسبة إلى العديد من المشكلات،

لكن هناك مشكلات كثيرة تكون صغيرة حين يكون الأطفال صغاراً وتكبر معهم على نحو مواكب ولهذا؛ فلا بد من معالجتها ومتابعتها في وقت مبكر، المشكل أن معظم الآباء والأمهات لا يملكون من المعرفة ما يمكّنهم من التفريق بين السلوك السويِّ لدى أبنائهم، والسلوك غير السويِّ، وإن من الدراسات ما يفيد أن تحديد الخط الفاصل بين الصحة والمرض هو أصعب في مرحلة الطفولة منه في المراحل اللاحقة، ومن هنا؛ فإني أحث كل من لديه طفل غير طبيعي، أو يعاني من مشكلة عقلية، أو حركية، أو نفسية، أو اجتماعية، أن يثقِّف نفسه، وأن يقرأ ويستمع لنصائح الأطباء والمتخصصين في مشكلة ابنه حتى يتمكن من مساعدته. إن تحديد المشكلة السلوكية -مثلاً- لدى الأطفال يتم من خلال كثرة تكرارها، ومن خلال شدة انحراف سلوك الطفل عن السلوك السوي لنظرائه من الأطفال، ويمثل فهم أسباب المشكلة الجزء الأهم في عملية التثقُّف هذه.

والآن اسمحوا لي أن أتحدث عن أسباب ثلاث من المشكلات التي يعاني منها الأطفال من أجل توضيح هذه القاعدة على أفضل وجه ممكن:

١ - النشاط الزائد:

يشكو كثير من الأمهات من أنَّ أولادهن لا يقر لهم قرار، ولا يستطيع الواحد منهم الجلوس في أي مكان سوى ثوان معدودة، كما أن حركته سريعة وغير متزنة، وهو لا يكترث بشيء اسمه إزعاج الآخرين... النشاط الزائد لدى الطفل مقلق جداً للأمهات، ويمنعهن في أحيان كثيرة من القيام بأي زيارة لقريبة أو صديقة، وأحياناً يكون مانعاً من استقبال الضيوف!

ما أسباب النشاط الزائد؟

أ- وراثة ذلك عن الآباء والأجداد.

ب- خلل وظيفي في الدماغ يسبّب التحرك الزائد.

ج- ضربات شديدة تعرّض لها رأس الطفل.

د- التسمم من بعض الأغذية التي تناولها.

هـ- الحالة الجسمية والعقلية للأم الحامل ذات تأثير واضح في النشاط الزائد لدى الطفل، حيث إن إصابة الأم بالمرض أثناء الحمل، وتعاطيها للعقاقير، وتعرضها للقلق والتوتر الشديد فتراتٍ طويلة، إن كل ذلك قد يؤدي إلى النشاط الزائد لدى الطفل.

و- مناكفة الأم للطفل، ونقدها الشديد له بأنه كثير الحركة، مما يطيل أمد المشكلة بعكس الأثر الذي يحدثه تجاهل الأهل لذلك، وتكيفهم معه.

إننا حين نعرف الأمور التي تسبب النشاط الزائد لدى أبنائنا؛ فإن المتوقع هو رحمة الطفل وإعذاره عوضاً عن لومه ومعاقبته.

٢- كذب الأطفال:

الكذب -باختصار- أن يقول الإنسان شيئاً يخالف ما يعتقده كما لو قال الطفل: أنا لم أكسر هذا الصحن وهو يعرف أنه هو الذي قام بكسره.

والذي يدفع الناس إلى الكذب في العادة هو محاولة خداع المستمع وتضليله، وكثيراً ما يكون الدافع إليه هو الرغبة في الحصول على مصلحة أو منفعة يصعب الوصول إليها عن طريق الصدق، كما يكون الدافع الرغبة في التخلص والهروب من ضرر أو مسؤولية.

إن الطفل في مرحلة ما قبل المدرسة يكذب؛ لأنه يجد صعوبة في

التفريق بين الحقيقة والخيال، وهو يكذب -أيضاً-؛ لأنه لا يعرف أن ما يقوله الإنسان ينبغي أن يكون مطابقاً للواقع. كثير من الآباء يُبدون انزعاجاً كبيراً حين يسمعون أولادهم يكذبون وهم لا يعرفون الأسباب العميقة لذلك، ومن هنا؛ فإنهم حتى يتمكنوا من محاصرة هذه الظاهرة لدى أبنائهم لا بد لهم من فهم الأسباب الدافعة إليها، ولعل من تلك الأسباب الآتي:

- محاولة الحصول على مكسب شخصي: طفل أخذ نصيبه من الحلوى وأكله، ثم جاء إلى أمه يقول: أعطني حصتي؛ فأنا لم آخذ شيئاً.

- يكذب الطفل -أحياناً- من أجل حماية بعض أصدقائه، فتجده يقول: فلان لم يضرب فلاناً مع أنه يعرف يقيناً أنه ضربه، وهذا اللون من الكذب يستمر مع كثير من الأطفال مدة طويلة جداً، قد تتجاوز مرحلة المراهقة.

- تقليد سلوك الكبار في الأسرة وخارجها؛ لأن الطفل الصغير يظن أن الكبار دائماً أعرف منه، أو أنهم دائماً على حق، فإذا كذب الكبير أمام الطفل، فإن الطفل يقوم بتقليده وكأنه يقوم بعمل جيد.

- الدفاع عن النفس للإفلات من عقوبة متوقعة على عمل سيئ، وهذا كثيراً ما يحدث، فحين يراق شيء من الحبر على السجاد، ولا يُعرف فاعل ذلك؛ فإن كل من في البيت من الصغار ينكرون القيام بذلك، وينكرون -أيضاً- أنهم يعرفون من فَعَلَ ذلك!

- يكذب الطفل -أحياناً- ويختلق الحكايات التي فيها شيء من بطولاته ومغامراته، حتى ينال إعجاب زملائه وأصدقائه.

○ يندفع الطفل إلى الكذب في بعض المواقف كي يوقع الأذى ببعض الأطفال -أي بدافع العدوانية-، وكم رأينا من الأطفال من يلبّس تهمة لطفل آخر حتى ينال العقوبة من شخص ثالث.

○ يكذب الطفل في بعض الأحيان كي يتخلص من بعض الذكريات المؤلمة، فإذا قال له زميله: أتذكر لما سرقت قلم زميلك فلان؟ فيقول: أنا لم أقم بأي شيء من ذلك، إن الطفل يريد أن يطوي صفحة سوداء من تاريخه، فيلجأ إلى الإنكار.

○ إذا أكثر الأبوان أو الزملاء... من وصف الطفل بأنه كذاب، فإن هذه الوصمة تصبح جزءاً من الصورة الذهنية لديه عن نفسه، أي أنه يصبح مقتنعاً تمام الاقتناع بأنه شخص كذاب، فيندفع إلى الكذب من غير شعور منه.

○ من المؤسف أننا نحن الكبار قد ندفع الصغار إلى الكذب، وذلك من خلال سحب ثقتنا منهم، فكثيراً ما يريد الطفل قول الحقيقة، لكنه يعرف أن أهله لن يُصدِّقوه، فيخترع الكلام الذي يظن أنه يلقى قبولهم.

إن فهمنا للأسباب التي تدفع الطفل إلى قول غير الحقيقة يملي علينا أن نغير في أسلوب تعاملنا معه، كما أنه يحسّن مستوى رؤيتنا لوضعية الطفل، وكيفية توجيهه وتنشئته.

٣- مشاكسات الأشقاء:

يعتقد كثير من الآباء والأمهات أنهم قد أخفقوا في بناء أسرة جيدة، وأخفقوا في تربية أبنائهم التربية المطلوبة بسبب النزاعات المستمرة بينهم، والحقيقة: أن المناكفات والمشاكسات بين الأبناء هي شيء طبيعي جداً، إلا إذا تجاوزت المألوف، فبعض الأشقاء يبلغ بهم

سوء التفاهم إلى حد الاقتتال والضرب والإيذاء البدني الخطير... على كل حال؛ فإن من المهم أن يدرك الأبوان أن شيئاً من التنافس بين الأبناء موجود في كل البيوت، لكن الناس لا يتحدثون عن ذلك في العادة، ويتكتمون عليه.

لعل من أهم أسباب التنافس والعداوة بين الأبناء الآتي:

○ الأطفال ولو كانوا أشقاء؛ فإن أمزجتهم وأذواقهم لا تكون متطابقة، كما أن الاحتكاك اليومي والتنافس على بعض الأثاث والألعاب يثير كثيراً من الخلافات والنزاعات، والقاعدة العامة في هذا هي: أن ما يتطلع الناس إلى اقتنائه هو دائماً أكثر مما هو متوفر، وما دام الأطفال يشتركون في الانتفاع بالكثير من الأشياء داخل المنزل؛ فإن نشوء شيء من الصراع حولها هو أمر شبه حتمي.

○ يغلي صدر الطفل بالعداوة والحقد ضد أخيه في بعض الأحيان بسبب ما يلمسه من اهتمام أبويه به، وتفضيله على غيره، والحقيقة: أن كثيراً من الآباء لا ينتبهون إلى دورهم في تأجيج العداوة بين أولادهم، فيندفعون إلى الإشادة بالذكي والمطيع والوسيم منهم.. وهذه مسألة تاريخية قديمة؛ فهؤلاء إخوة يوسف يقولون: ﴿ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴾ [يوسف: ٨-٩].

إن الأطفال يتسابقون إلى الاستحواذ على محبة أبويهم لهم، فإذا شعروا أن واحداً منهم فاز بذلك دونهم أضمروا له العداوة والكراهية، وهذا ما ينبغي الانتباه إليه أشد الانتباه.

○ يتضايق الطفل من أمه وأبيه في بعض الأحيان لسببٍ ما، وهو لا يستطيع إظهار ذلك، فما يكون منه إلا أن يحوّل ذلك الضيق إلى أخيه الصغير، فيحاول إزعاجه وإيذاءه ومضايقته، وهذا لا يكاد يخلو منه بيت من البيوت.

○ بعض الأطفال يحاولون إيذاء إخوتهم الصغار إذا شعروا أن آباءهم وأمهاتهم متضايقون منهم، فالبنت من باب وفائها لأمها وتعبيرها عن حبها لها، قد تضرب أختها الصغيرة إذا أحسّت بعدم رضا والدتها عن تلك الصغيرة.

○ مقارنة الأهل للأبناء بعضهم ببعض على نحو سلبي توغر صدر من تضرر بالمقارنة: قالت الأم لإحدى بناتها: إنك غير منظمة، ولا تهتمين بنظافتك الشخصية، وأود أن تتعلمي من أختك فلانة ما الذي عليك أن تفعليه... إن هذا سيجعل صدر البنت المتّهمة بالفوضى يغلي بالحقد على أختها الأخرى، والسبب هو الأم التي قارنت بينهما على ذلك النحو. في بعض الأحيان يكون لدى الأسرة ابن موهوب جداً، وهو ينتقل من إنجاز إلى إنجاز، ومع كل إنجاز يخطف المزيد من الأضواء، والمزيد من اهتمام الأهل، مما يجعل باقي إخوته يعيشون في ظلاله مع شعور مسيطر بإهمال أهلهم لهم، وهذا يدفعهم إلى التهوين من شأن أخيهم في كل مناسبة من المناسبات، وربما حاكوا المؤامرات ضده.

○ في بعض الأسر يُمنح الأخ الأكبر سلطات واسعة للتحكم بإخوانه الصغار، ويُمنح الذكور سلطات واسعة للتحكم بالإناث، فهم حماة العرض والشرف، وهذا يولّد الكثير من العداوات بين الأبناء، وحين يتلقّى الأخ الأوسط الإهانة والإساءة من أخيه الكبير؛

فإنه كثيراً ما ينتقم لنفسه من أخيه الأصغر... والأبوان هما المسؤولان عن كل ذلك.

أردت من وراء ذكر هذه النماذج في فهم أسباب المشكلات التي يعاني منها الصغار أن أنبه الأذهان إلى ضرورة إدراك جذور الأزمات والصعوبات والانحرافات التي يعاني منها الأبناء، وهذا الإدراك يحتاج إلى شيئين:

المزيد من الاهتمام، والمزيد من المعرفة التربوية؛ والله المستعان.

القاعدة العاشرة:

(لا تربية من غير تأديب)

نحن نعرف أن طبائع الأطفال ليست واحدة، ففيهم المسالم المطواع الهادئ، وفيهم المشاغب المشاكس العنيد، ومن هنا؛ فإن احتياجهم إلى التأديب والصرامة في التربية ليس على درجة واحدة، لكنهم جميعاً في حاجة إلى الشعور بوجود سلطة تسدد وتقوّم وترشّد، وتحول دون قيام الطفل بأشياء غير ملائمة، أو تنطوي على نوع من الأذى لنفسه أو لغيره.

الطفل لا يملك معايير الصواب والخطأ، ولا يعرف اللائق والمناسب من غير اللائق وغير المناسب، وجهازه الأخلاقي غير مكتمل، كما أن قدرته على حجز نفسه عن الوقوع في الأشياء الخاطئة ضئيلة ومحدودة، ولهذا كله؛ فإنه لا بد من ممارسة المنع والحظر والعقوبة والحرمان من بعض الميزات، حتى ينشأ النشأة الصالحة المُرضية.

الأطفال من جهتهم يعرفون أنهم ليسوا دائماً على حق، ولهذا فإنهم يتقبلون العقوبة إذا توفرت فيها بعض الشروط والمواصفات، وهذه بعض المفاهيم والملاحظات في قضية التأديب:

١ - التأديب جهد تكميلي:

هذه قضية مهمة للغاية حيث إن الذي يساعد على بناء شخصية الطفل على نحو جيد، هو تلك المبادرات العاطفية التي يلمسها الطفل من أبويه، وتلك الإرشادات التعليمية والتوجيهية التي يسمعها منهما. الطفل من خلال اقتدائه بأبوين محترمين، ومن خلال عيشه في أسرة كريمة يتعلم كل الفضائل التي ينبغي أن يتعلمها، وإن لم يستطع الالتزام بها يعرف بوضوح أن عليه الالتزام به. العقوبات لا تنشئ طفلاً، ولا دولة، ولا مجتمعاً، لكنها تحمي الطفل والدولة والمجتمع، وما ينبغي أن يستغرقه جهدُ التأديب محدود جدًّا بالنسبة للجهد الذي ينبغي أن يُبذل في تكوين عقلية الطفل ونفسيته. بعض الآباء يفعلون الشيء المعاكس؛ فهم يلوذون بالصمت، ويتعاملون مع الأبناء بتجاهل شبه تام، حتى إذا وقع الطفل في خطأ كبير ثاروا وهاجوا، وأنزلوا به أشد العقوبات، لكنهم يكتشفون بعد حين أن عقوباتهم لم تؤدِّ -مع الأسف- إلى أي نتيجة!

القاعدة العامة في هذا هي: المزيد من الجهد التربوي الإيجابي سوف يقلل من الحاجة إلى التأديب، والعكس صحيح.

٢ - التخطيط للتأديب:

يحتاج تأديب الأطفال إلى تخطيط وإلى رؤية حتى يكون فعّالاً ومجدياً، وأعتقد أن البداية في هذا تكون باتفاق الأبوين على بعض أشكال العقوبات التي يمكن اتباعها في تأديب الأولاد؛ لأن اختلاف الأبوين قد يفسد العملية كلها، ولا شك في أن الأبوين من خلال مذاكرتهما المستمرة في شؤون الأبناء تتجمع لديهما بعض الملاحظات على سلوكهم، وعليهما أن يتذاكرا في أسلوب معالجتها، وأعتقد أن

على الأبوين أيضاً أن يتذاكرا في نوعية ردود فعل الأبناء على العقوبات التي قرروا استخدامها حتى يتصرفا تجاهها بحكمة وشجاعة.

التخطيط يتطلب كذلك اجتماعات مع الأبناء لتوضيح ما هو مطلوب منهم في حركتهم اليومية داخل المنزل وخارجه، وللتحدث في واجباتهم ومسؤولياتهم الأخلاقية والدراسية، وينبغي أن يتم اتفاق معهم على الجزاء الذي يلقاه من يخالف ما هو متفق عليه، إحدى الأمهات اتفقت مع ابنتها البالغة من العمر إحدى عشرة سنة على أنها إذا لم تنظف الأطباق التي تقوم بغسلها؛ فإن عليها أن تذهب إلى الفراش قبل الموعد المحدد بعشر دقائق، فإذا عادت إلى ذلك؛ كان عليها أن تذهب قبل عشرين دقيقة، وهكذا... إذا لم يتفق الأبوان مع بعضهما أولاً ومع أولادهما ثانياً على بعض المسائل المتعلقة بالتأديب والعقوبة؛ فإنهما سيشعران أنهما في حالة طوارئ مستمرة، وفي ارتباك دائم.

٣- تأديب حازم من غير قسوة ولا إهانة:

التأديب الصحيح هو التأديب الذي يحمل رسالة واضحة بالخطأ الذي ارتكبه الطفل، وبضرورة عدم تكراره في المستقبل، وهذا يعني أن التأديب ينبغي أن يتم -على قدر الإمكان- في إطار العلاقة الحسنة بين الأبوين والصغار؛ لأن العلاقة الدافئة هي الحبل السري الذي يتغذى منه الطفل، وينبغي المحافظة عليها بكل وسيلة، واستهداف العودة إليها عقب كل تأديب وكل عقوبة.

الحزم في التربية يعني أننا إذا قلنا كلمة نفذناها، فإذا قال الأب: إن ترك أنوار الغرفة مضاءة بعد مغادرتها يترتب عليه خصم مصروف يوم، فإن عليه أن يطبّق ذلك، وعليه أن لا يمنح الولد فرصة ثانية؛ لأنه نسي، أو لأنه كان مستعجلاً...

إن التطبيق الحرفي للعقوبة ودون تسويف يجعل الأطفال يتنبأون بنتائج أعمالهم، وهذا التنبؤ هو الذي يردعهم عن ارتكاب الخطأ، وهو نفسه الذي يجعلهم يتقبلون العقوبات المقررة.

إن تطبيق النظام والعقوبات ينبغي أن يتم بأسلوب عملي وصامت وجاد من غير صياح، ولا تهديد، ولا تحذير، ولا مقدمات. في أحد البيوت لاحظ الأبوان أن الأولاد يسرفون في الجلوس أمام التلفاز، فقاما بتحذير الأبناء من ذلك، وقالا: إذا جلستم أكثر من ساعة في اليوم أمام التلفاز، فسيكون من حقنا حرمانكم منه مدة طويلة، ولم يحمل الأبناء هذا التحذير على محمل الجد؛ لأنهم ظنوا أن أبويهم لن يستغنيا عن التلفاز، وبعد ثلاثة أيام من ذلك التحذير جاء الأطفال من المدرسة، ولم يجدوا التلفاز، ولكن وجدوا أن أباهم قرر وضعه في المستودع مدة ثلاثة أشهر، ولم يقبل بأي مراجعة في ذلك، وبعد انقضاء المدة أعاده إليهم قائلاً: إذا تم تجاوز المدة المسموح بها لمشاهدة التلفاز، فإنه سيخرج من بيتنا على نحو نهائي، والطريف أن الأطفال بعد ذلك صاروا يحاسبون أنفسهم على الدقيقة الواحدة، حتى لا يقع المحذور!

لكن لا بد لنا معاشر المربين من أن نفرق بين الحزم والقسوة والإهانة.

إن التأديب الحازم يعني أنه منطقي، وحكيم، ومنصف، وبعيد عن الإفراط، إن الأب الذي يحرم ابنه من مصروف شهر كامل، قاس في عقوبته، وإن الأم التي تُلزم ابنتها بتنظيف البيت أسبوعاً كاملاً؛ لأنها لفظت بكلمة نابية هي -أيضاً- قاسية، وإن الأب الذي يصفع ولده يكون قاسياً؛ لأن في الضرب على الوجه إهانة، وهو منهي عنه أيضاً، ولا يصح اللجوء إلي أي ضرب أساساً إلا إذا كان الطفل أو الفتى يقوم بعمل يعرِّض حياته للخطر، ولم ينفع معه إلا الضرب.

الشتم والوصف بالغباء والنذالة والخسة.. كذلك من الألفاظ التي تنطوي على الإهانة، والنطق بها خطأ، ولا يُعدُّ من الأساليب التربوية الناجعة.

٤- لا بد من التزام الأطفال بحد أدنى من التهذيب:

يجب أن يعرف الأبناء أن هناك عتبة للأدب، لا يصح الهبوط عنها، وهناك حد أدنى للتهذيب لا يصح تجاهله مهما كانت ظروف الولد، ومهما كان مزاجه سيئاً أو معكراً، حيث لا يمكن إطلاقاً قبول عذر الولد إذا دخل على أبويه ولم يلق عليهما السلام، ولا يصح أن يخرج أيضاً قبل أن يسلِّم عليهما ويستأذنهما بالخروج، ولا يصح أبداً للطفل أن يرفع صوته على أبويه، أو أن يمضي غاضباً، وأبوه يتحدث معه، كما لا يجوز له أن يُبدي أي ملاحظة على أبويه بأسلوب غير مهذب وغير لائق...

إن من المهم أن نوضِّح للصغار هذه الأمور، ونؤكد عليها؛ لأننا نريد من الطفل أن يتعلم كيف يحترم الكبار، وكيف يضغط على نفسه، ويضبط عواطفه وانفعالاته.

٥- تحمل النتائج المنطقية:

من المهم أن نجعل الأطفال يوقنون أنهم حين يسلكون سلوكاً معيناً؛ فإن عليهم أن يتحملوا النتائج المنطقية التي تترتب عليه؛ لأن هذا سيجعلهم يحاسبون أنفسهم بأنفسهم، في إحدى المرات وضعت الأم الطعام على المائدة، ونادت الأطفال لتناول طعام الغداء، وقالت: إذا قمنا عن الغداء؛ فلن يكون هناك طعام حتى العشاء، وتأخر أحد الأبناء بسبب مكالمة هاتفية مع أحد أصدقائه، وانتهت الأسرة من تناول الغداء، ورفعت الأم المائدة، وكانت عبارة عن صحون فارغة، وبعد أن انتهى الولد من مكالمته اندفع إلى الثلاجة؛ فلم يجد شيئاً

يأكله، ووجد أن عليه أن يظل من دون طعام إلى ما بعد المغرب، يقول الولد بعد ذلك بسنوات: وقد أخذت درساً بليغاً، وصرت أحذر أشد الحذر من التأخر في الجلوس على المائدة.

أحد الأبناء الصغار كان يدرس في إحدى رياض الأطفال، وكان يكره الذهاب إلى الروضة، وفي أحد الأيام رفض ارتداء ثيابه حتى لا يذهب مع أبيه، فما كان من الأب إلا أن وضع ثياب الطفل في كيس، وأخذ بيده وأركبه بالسيارة، وليس عليه سوى ثيابه الداخلية، وحين وصل إلى الروضة: وجد الطفل أنه ليس أمامه سوى ارتداء الملابس، والنزول من السيارة، وبذلك انتهت مشكلة الزعل اليومي، والتمنع من الخروج إلى الروضة على نحو نهائي.

٦- لكل مرحلة عمرية تأديب يناسبها:

حين يكون الطفل في الثالثة؛ فإنك لا تستطيع عقد اتفاقية معه حول السلوك الذي ينبغي عليه أن يسلكه؛ لأنه لا يعقل ما يقال له، ولا يهتم به ومن هنا؛ فإن العبوس في وجهه حين يقع في عمل خاطئ، أو حين يريد الإقدام عليه قد يوصل رسالة أو معنى إليه، وأحياناً يخطئ الصغير ويسرع ليلقي بنفسه في حِجْر أمه، فتعرض عنه، وتمنعه من ذلك؛ فيفهم الطفل أن أمه لا ترحب به. إن الطفل الصغير يشعر بالحاجة المستمرة للدعم والمساندة والعطف من أمه -على نحو أخص-، وإن حجب ذلك عنه يشكّل وسيلة تأديبية رادعة.

أما ابن الثالثة عشرة؛ فإن له شأناً مختلفاً، فهو يشعر بالكثير من الاستقلالية والاستغناء عن أبويه، ومن ثم؛ فإن حجب التعاطف عنه لا يؤثر فيه، بل يولّد لديه بعض الأفكار والانطباعات السيئة عن أسرته، ومن هنا؛ فإن منعه من ممارسة بعض الأشياء التي يحبها، يؤثر

فيه أكثر. هذا فتى مراهق ضرب أخته الصغرى أكثر من مرة، ونبهه أبوه على ضرورة الكف عن ذلك لكن دون جدوى، فما كان من أبيه إلا أن منعه من استخدام هاتف المنزل والاتصال برفاقه مدة عشرين يوماً، وخلال تلك المدة شعر الفتى بالكثير من الضيق، وحاول مع والدته تخفيف المدة، لكنه وجدها أكثر صلابة من أبيه، ولم يسمح له أبوه بعد ذلك باستخدام الهاتف إلا بعد أن كتب تعهداً بأن لا يمد يده على أي واحد من إخوته.

٧- عقوبة محددة:

أنا أنظر إلى العقوبة في سياق التربية على أنها أشبه بـ (تحويلة) نخرج فيها عن الطريق لنعود إليه بعد انتهائها، وكلما كانت التحويلة أقصر وأوضح كان ذلك أفضل. العقوبات التي يوقعها المربي تعكر جو العلاقة بينه وبين الطفل، ولهذا ينبغي أن تكون واضحة ومحددة.

بعض الآباء لا يعرف هذا المعنى، ولا يعرف -أيضاً- كيف يعاقب المخطئ، ويستعيض عن ذلك بالتوبيخ المستمر، والمعاتبة الدائمة، ولا يكاد ينتهي من تأنيب الطفل على خطأ وقع فيه حتى يَصْدر منه خطأ آخر، فيجدد الأب -ومثله طبعاً الأم- حملة التوبيخ، وهكذا يظل الجو الأسري مسمّماً ومكتئباً... لا للعقوبات المبهمة، ولا للتأنيب المتواصل، ولا للمحاسبة على كل صغيرة وكبيرة، ولا لفتح الدفاتر القديمة من أجل إغاظة الطفل، وكسر شوكته؛ فهذا كله يضر ولا ينفع.

٨- لا للضرب:

علينا أن ننظر إلى الضرب في مسألة التأديب على أنه الشيء الذي لا يصح أن نفكر فيه، لا من بعيد ولا من قريب، وعلينا كذلك أن ننظر إلى الحاجة إليه على أنها بمثابة اختبار لنا، فإذا وجدنا أنفسنا مستغنين

عنه كنا ناجحين في تربيتنا، وإذا وجدنا أنفسنا محتاجين إليه بوصفه الحلَّ الوحيد كان علينا أن نراجع أساليبنا التربوية؛ لأنها تنطوي حينئذ على خللٍ ما.

إن رسول الله ﷺ هو أستاذ المربين، وقدوة المعلمين، وما عُرِف عنه أنه ضرب صغيراً أو كبيراً إلا أن يجاهد في سبيل الله، وقد روى مسلم عن عائشة –رضي الله عنها– أنها قالت: «ما ضرب رسول الله ﷺ خادماً ولا امرأة قط».

بعض المربين ذكر أن الطفل لا يُضرب قبل العاشرة، وبعضهم قال: لا يضرب قبل الثالثة عشرة، وذلك لأن الطفل الصغير لا يعقل الرسالة التي نوجهها له من خلال الضرب، وعلى كل حال؛ فإن على المربي أن لا يلجأ إلى أي عقوبة وهو غاضب؛ لأن العقوبة لن تكون حينئذ مدروسة ولا متزنة، وإذا كان الضرب كله شيئاً ينبغي الابتعاد عنه؛ فإن الضرب على الوجه، وأمام الناس، والضرب المؤلم جداً، إن كل ذلك ينبغي الحذر منه أشد الحذر. إن الدول قد توقفت عن التعذيب والضرب في السجون لما ينطوي عليه من الإهانة والإضرار بإنسانية الإنسان، وإن علينا أن نتوقف عنه أيضاً في بيوتنا من باب أولى.

هذا ما أحببت أن أذكره في هذه القواعد العشر، وأعتقد أن كل قاعدة من هذه القواعد تحتمل المزيد من القول والتفصيل، لكن حرصي على أن يظل حجم هذه الرسالة صغيراً، جعلني أمسك عن كتابة الكثير من ذلك.

والله أسأل أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه، وأن ينفع به إخواني الآباء وأخواتي الأمهات، إنه سميع مجيب.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

فهرس الموضوعات:

المقدمة ٥

- القاعدة الأولى:

ما قبل الإنجاب ٧

١- ما الثقافة التربوية؟ ٨

٢- التربية ممتعة جدًّا وشاقة جدّاً جدّاً ٨

٣- من البيئات الضيقة إلى البيئات الواسعة ٩

٤- انهيار الأسرة أساس انهيار الحضارة ٩

٥- علينا أن نتخذ من الحالات الصعبة مفتاحاً للتثقف ١٠

٦- ثقافة تربوية لكل الأسرة ١١

٧- الاختلاف بين الناس هو الأساس ١١

٨- التربية جهد مشكور، وقضاء لدَين ١٢

- القاعدة الثانية:

نحن جزء من العالم، ولنا خصوصيتنا: ١٥

١ - لماذا نحن جزء من العالم؟ ....
٢- الحكمة تكمن دائمًا في التواصل مع التمايز ....
٣- شرح خصوصيتنا على الصعيد التربوي ....
٤- نتمتع بتنظير تربوي فريد ....

هل البيئة هي كل شيء؟ ....
مكونات البيئة الأسرية المطلوبة:
١ - أبوان جيدان ....
٢- بيئة مرحة ومريحة وهادئة ....

التربية تفاعل: ....
١ - كيف نساعد الطفل على التفاعل ....
٢- مع أي شيء يتفاعل الأطفال؟ ....
٣- أمور تجعل التفاعل ضعيفًا ....

تربية قائمة على الوضوح ....
- وضوح الوضع الحالي للأسرة ....
- وضوح ما ينبغي عمله وكيف يُعمل ....
- ما نحب أن يكون أبناؤنا عليه ....

التربية اهتمام: ٥٥
- عالم متميز ٥٥
- الوعي بمسار الأسرة ٥٧
- كن قريبًا ٥٨

- القاعدة السابعة:

تربية تقوم على التوازن ٦١
صور للتوازن في التربية: ٦٣
١- نواة الأسرة رجل وامرأة ٦٣
٢- التوازن في القرارات داخل الأسرة ٦٤
٣- التوازن بين الحرية والضبط ٦٤
٤- التوازن في عملية دمج الطفل في المجتمع ٦٦

- القاعدة الثامنة:

التربية تعاطف ٧١
- المشاركة في المشاعر ٧٢
- نعم... ولكن ٧٣
- التعاطف موقف وسلوك ٧٤
- المكافأة والتشجيع ٧٦

- القاعدة التاسعة:

تفهم أسباب مشكلاتهم: ٧٩

١ - النشاط الزائد ....
- أسباب النشاط الزائد ....
٢- كذب الأطفال ....
٣- مشاكسات الأشقاء ....

لا تربية من غير تأديب ....
١- التأديب جهد تكميلي ....
٢- التخطيط للتأديب ....
٣- تأديب حازم من غير إهانة ....
٤- التزام الأطفال بحد أدنى من التهذيب ....
٥- تحمل النتائج المنطقية ....
٦- لكل مرحلة عمرية تأديب يناسبها ....
٧- عقوبة محددة ....
٨- لا للضرب ....